مفهوم الشمولية المتحولة في فلسفة شيلدون وولين

د. هبة البدوي محمد

أستاذ الفلسفة السياسية المساعد بقسم الفلسفة كلية الآداب جامعة بني سويف.

ملخص البحث

يُعَد شيلدون وولين من أبرز المفكرين السياسيين الأمريكيين المعاصرين.

يدور هذا البحث حول إشكالية رئيسة هي: ما الذي يقصده شيلدون وولين بالشمولية المتحولة وما أهم الركائز التي تقوم عليها؟.

يحاول هذا البحث الإجابة عن عدة تساؤلات أهمها: ما الذي يقصده شيلدون وولين بالشمولية المتحولة؟، ما الفروق الدقيقة التي يقدمها بين الشموليات التقليدية والشمولية المتحولة؟، ما الإرهاصات التي مهدت لوجود الشمولية المتحولة؟، كيف أقام وولين علاقة بين وجود الشمولية المتحولة وصناعة الأسطورة؟، ما أهم الآليات والاستراتيجيات التي تعول عليها الشمولية المتحولة؟، ما الذي يقصده وولين بالديموقراطية الهاربة وكيف يمكن أن تكون علاج للشمولية المتحولة؟.

The concept of transforming totalitarianism in the philosophy of Sheldon Wolin

Dr. Heba Elbadwy Mohammed

Assistant Professor of Political Philosophy, Department of Philosophy, Faculty of Arts, Beni Suef University

Abstract

Sheldon Wolin is one of the most prominent contemporary American political thinkers.

This research revolves around a main problem: What does Sheldon Wolin mean by transformative totalitarianism and what are the most important pillars on which it is based؟.

This research attempts to answer several questions, the most important of which are: What does Sheldon Wolin mean by transforming totalitarianism? What nuances does it present between traditional totalitarianism and transformative

(ISSN: 2536 - 9555)

totalitarianism? What are the precursors that paved the way for the existence of transformed totalitarianism?, How did Wolin establish a relationship between the existence of the transformed totalitarianism and the myth-making? What are the most important mechanisms and strategies on which the transformed totalitarianism depends? What does Wolin mean by fugitive democracy and how can it be a treatment for transformed totalitarianism؟.

مقدمة

يُعَد شيلدون وولين (Sheldon S. Wolin) (١٩٢٢–٢٠١٥م) من أبرز المفكرين السياسيين الأمريكيين المعاصرين، وترجع أهميته إلى أنه حاول أن يثبت أن المفكر هو مرآة عصره، وأنه لم ولن يكن أبدا منفصلاً عن واقعه؛ إنه على العكس من ذلك تمامًا جزء من هذا الواقع ينفعل بأحداثه ومستجداته، ويحاول أن ينقل لنا صورة حية عن هذا الواقع المعيش بكل نزاهة وموضوعية.

كما ترجع أهمية شيلدون وولين إلى أنه حاول أن يترجم مهمة الفكر السياسي إلى واقع حي ملموس؛ فإذا نظرنا إلى هدف الفكر السياسي على مر العصور نجد أنه الإنسان: الإنسان في كل زمان ومكان كيف يكون من حق هذا الإنسان أن يحيا الحياة التي يستحقها وهي التي ينعم فيها بالحرية والمساواة والأمن والسلام والاستقرار؟ ولكن أغلب المفكرين السياسيين قد وجدوا أن هذه الحياة كان يشوبها دائما ما يعكر صفوها، لأن الإنسان على مر العصور قد تعرض للكثير من المظالم وأشكال لا حصر لها من المعاناة فكانت دائما حائلاً بينه وبين الحياة التي يستحق أن يحياها.

ومن هنا أصر المفكرون على مر العصور على أن يقوموا بدورهم التنويري الإيجابي، وأدركوا أن عليهم مهمة يجب أن يقوموا بها وهذه المهمة هي: محاولة الكشف عن المشكلات والأزمات التي كانت المسئول الأول عن كل أشكال الظلم والمعاناة التي تعرض لها البشر على مدار التاريخ، وأدركوا أن دورهم يشبه دور

الطبيب الذي علية أن يشخص الداء باحثاً عن أسبابه وعلله الحقيقية ثم يحاول أن يقدم العلاج الشافي الذي يحاول أن يستأصل الداء من جذوره.

وقد حاول شيلدون وولين أن يقوم بهذا الدور التنويري من خلال الحديث عن الداء الذي رأى أنه المسئول الأول عن كل صور الظلم والمعاناة التي نعاني منها في عصرنا الراهن وهذا الداء في رأيه هو ما أطلق عليه أسم الشمولية المتحولة، والمقصود بالشمولية المتحولة: وجود القوى العظمى التي تمتلك قدرات وإمكانيات هائلة تجعلها قادرة على فرض هيمنة عالمية تتحكم من خلالها في مصير ومقدَرات الشعوب، وتتخفى تحت ستار من الشعارات الزائفة والمخادعة فنجدها تقهر وتستبد وتظلم باسم الديموقراطية وحقوق الإنسان وهي في حقيقة الأمر تقضي على كل مظاهر الديموقراطية، وتكون مثابة الهادم الأكبر لكل حقوق الإنسان.

وقد رمز شيلدون وولين للقوى العظمى بالهيمنة الأمريكية ورمز إليها أيضا بالهيمنة الرأسمالية المتمثلة في عولمة الشركات الكبرى وفرض نفوذها على الاقتصاد والسياسة العالمية، ونظر إلى الهيمنة العالمية وهيمنة اقتصاد الشركات الكبرى على أنهما وجهين لعملة واحدة فكل منهما جزء لا يتجزأ من الآخر.

ومن هنا حاول وولين أن يكشف لنا عن الوجه الحقيقي لهذه القوى العظمى التي تعبر عن الشمولية المتحولة، وحاول أن يقدم لنا أهم الآليات والاستراتيجيات التي تعول عليها لتحقيق أهدافها ومراميها ثم حاول أن يقدم لنا العلاج الذي في رأيه لن يشفي تماما من الداء؛لأنه مفكر واقعي لا يريد أن يحلق في سماء اليوتوبيات ويقول أن هذا العلاج لا يؤدي إلى القضاء تماما على الشمولية المتحولة المتمثلة في القوى العظمى؛ لأن الأسس التي تقوم عليها والآليات التي تعول عليها والتي على رأسها التقنيات العلمية والتكنولوجية الهائلة تجعل من الصعب محوها من الوجود، وبالتالي فإن العلاج الذي يقدمه وولين يحاول فقط أن يخفف من حدة هذه الشمولية المتحولة.

(ISSN: 2536 - 9555)

ترجع أهمية هذا البحث لأهمية الدور التنويري الإيجابي الذي يحاول أن يقوم به شيلدون وولين والمتمثل في الكشف عن الداء الذي نعاني منه في عصرنا الراهن والمتمثل في وجود الشمولية المتحولة فيتضح من خلال هذا البحث أن المفكر السياسي يكون مسايرًا لأهم التطورات والمستجدات السياسية، وأن المشكلات والأزمات التي يمر بها الإنسان تتغير بتغير هذه المستجدات والتطورات السياسية، ومن هنا حاول أن يقدم لنا شيلدون وولين من خلال هذا البحث الفروق الدقيقة بين الشموليات التقليدية والشمولية المتحولة، وكيف أنها تأثرت بالمستجدات السياسية والاقتصادية والعلمية والتقنية، وكيف أدت هذه المستجدات إلى تغيير طبيعة المجتمع وتهميش دور المواطن أو بعبارة أدق القضاء على دوره تماما وتحويله إلى متفرج سلبي بعيد كل البعد عن المشهد السياسي.

كما ترجع أهمية هذا البحث إلى أنه سيتضح من خلاله أهم الآليات والاستراتيجيات التي تقف وراء الشمولية المتحولة، فتكون مثابة الركائز الأساسية التي أدت إلى وجود الشمولية المتحولة، وبالتالي ترجع أهمية هذا البحث للكشف عن الدور الأساسي الذي يمكن أن يقوم به الوعي في الكشف عن كل الأزمات والمشكلات التي يعاني منها الإنسان وضرورة مواجهتها ومحاولة البحث عن حلول للقضاء عليها والتخلص منها؛ لأن غياب الوعي هو المسئول الأول عن أغلب الأزمات والمشكلات التي يعاني منها البشر على مر العصور، وكيف أن الشمولية المتحولة تحاول بكل طاقتها وإمكنياتها أن تغيب هذا الوعي من خلال استخدام كل حيل التلاعب والخداع التي تحول هذ الوعي من وعي حقيقي إلى وعي زائف يخفي الحقائق ويشوه مضامينها.

يدور هذا البحث حول إشكالية رئيسة هي: ما الذي يقصده شيلدون وولين بالشمولية المتحولة وما أهم الركائز التي تقوم عليها؟.

يحاول هذا البحث الإجابة عن عدة تساؤلات أهمها: ما الذي يقصده شيلدون وولين بالشمولية المتحولة؟، ما الفروق الدقيقة التي يقدمها بين الشموليات التقليدية والشمولية المتحولة؟، ما الإرهاصات التي مهدت لوجود الشمولية المتحولة؟، كيف أقام وولين علاقة بين وجود الشمولية المتحولة وصناعة الأسطورة؟، ما أهم الآليات والاستراتيجيات التي تعول عليها الشمولية المتحولة؟، ما الذي يقصده وولين بالديموقراطية الهاربة وكيف يمكن أن تكون علاج للشمولية المتحولة؟.

١- من الشمولية التقليدية إلى الشمولية المتحولة

إن الحديث عن الشمولية المتمثلة في فرض الهيمنة العالمية لم يكن وليد اليوم ولكن وجودها قد أصبح طاغياً أكثر من أي وقت مضى، وتتجسد هذه الشمولية في مجموعة من الدول التي رأت أن مهمتها ليست قاصرة على تحقيق الخلاص لشعوبها وإصلاح شئون مجتمعاتها وإنما مهمتها أشمل من ذلك بكثير فإن عليها واجب مقدس هو تحقيق الخلاص للبشرية بأكملها. وهذه الصورة ليست جديدة فقد كان لها جذور في الامبراطوريات القديمة كما في الامبراطورية الرومانية التي أرادت أن تسيطر على العالم في ذلك الوقت، وهذه الدعوة إلى الهيمنة العالمية لم تقتصر على الامبراطوريات القديمة وإنما أستمرت على مدار التاريخ؛ ففي كل حقبة تاريخية نجد بعض الدول والأنظمة التي ترفع شعار الخلاص وترى أنها المسئول الوحيد عن إنقاذ العالم، وقد ظهرت هذه الصورة بدرجة أكبر في القرون الأخيرة مع وجود الدول العظمى والتكتلات الكبيرة، والتي ترغب في فرض هيمنتها على العالم بأسره، وإن كانت الصورة واحدة إلا أن آليات التنفيذ قد اختلفت بعض الشيء من خلال الرؤى المصاحبة لها. فهذه الدول تعلن أنها لا تسعى إلى الهيمنة بأي حال من الأحوال، وأن هدفها هو تخليص البشرية فترى نفسها المتحدث باسم الحقوق والحريات التي تفتقر إليها سائر الشعوب الأخرى، لذا فإن عليها واجب مقدس وهو أن تنقذ هذه الشعوب وأن تطبق القيم التي تؤمن بها هي بالشكل الذى تراه مناسباً.

(ISSN: 2536 - 9555)

إن الحديث عن الشمولية المتحولة المتمثلة في القوى العظمى وهيمنتها العالمية كان محور اهتمام العديد من المفكرين،

ومن أبرز هؤلاء المفكرين: جان بول سارتر (Jean-Paul Sartre) (١٩٠٥–١٩٨٠)، إريك فروم (Erich Fromm) (١٩٠٠–١٩٧٩)، إدغار موران (Edgar Morin) (١٩٢١–٢٠٠١)، آلان تورين (Alain Touraine) (١٩٢٥)، نعوم تشومسكى (Noam Chomsky) (١٩٢٨)، أمارتيا سن (Amartya Sen) (١٩٣٣)، أولريش بيك (Ulrich Beck) (١٩٤٤)، جون ميرشامير (١٩٤٧).

رأى سارتر أن الدول العظمى في هذه الأيام بعد أن تحررت معظم الدول والشعوب من الاستعمار الذى فرضته عليهم ترغب في إعادة هذا السيناريو من جديد، وبشكل أكثر دقة فإنها لم تتنازل عن هذا الهدف أبداً وهنا يؤكد سارتر أن من أهم الوسائل التي تعتمد عليها هذه الدول للسعى نحو الهيمنة العالمية: الاستعمار الاقتصادي الذى فرضته هذه الدول العظمى على أغلب دول وشعوب العالم؛ فالدول التي لا يوجد بها قوات عسكرية خاصة بهذه الدول العظمى يتم محاصرتها بأشكال أخرى متعددة أشد قسوة وعنف من الوجود العسكري؛ فإن هذه الدول أصبحت تحرك معظم شعوب العالم بأصابعها كما تشاء تسيطر على كل شيء فيها وتحاول بكل الطرق أن تجردها من كرامتها وإنسانيتها في نفس الوقت الذى تدعى فيه أنها جاءت من أجل الإنسانية[١].

كذلك يؤكد إريك فروم أن هناك قوتين عظمتين تسعى إلى تحقيق الهيمنة العالمية هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وتزعم كل قوة من هاتين القوتين المتنافستين أن نظامها يؤدى إلى الخلاص النهائي للإنسان ويضمن فردوس

[١] فرانز فانون، معذبوا الأرض، (مقدمة بقلم جان بول سارتر)، ترجمة: سامي الدروبى وجمال أتاسى، دار القلم، دمشق، ١٩٨٥، ص ٧.

المستقبل، وترى كلاً منهما أن القوة الأخرى تكون مناقضة لها وبالتالي فإن نظامها يكون عاجزاً عن تحقيق الخلاص للبشرية[٢].

أما إدغار موران فقد تحدث عن وجود هيمنة عالمية أحادية الجانب لا تعترف إلا بمصالحها وأهدافها وهذه الهيمنة تدعى أن ما تقوم به يكون باسم الإنسانية إلا أن كل ما تفعله يكون منافياً للإنسانية[٣].

كذلك يرى آلان تورين أن الدولة التي أصبحت تقوم بدور المخلص السياسي هي الولايات المتحدة الأمريكية التي أصبحت مهووسة بمهمتها الإلهية المتمثلة في الدفاع عن الخير ضد الشر[٤].

وهنا يؤكد آلان تورين أن الدول العظمى كانت تميل في الماضي ولم يتوقف ذلك حتى الآن إلى تقديم نفسها مثالاً ونموذجاً للعالم[٥].

إن الوهم الذى كان يسيطر على عقول الفرنسيين والبريطانيين في القرن التاسع عشر هو نفسه اليوم وهم الأمريكيين؛ إنه الوهم المتمثل في فرض هيمنة عالمية أحادية الجانب تفرض نفوذها على العالم بأسره. ويتم تبرير هذه الهيمنة الأحادية دائماً باسم الدفاع عن خير البشرية[٦].

وقد تحدث نعوم تشومسكى عن الهيمنة العالمية التي أصبحت واضحة بشكل جلى في الهيمنة العالمية التي ترغب الولايات المتحدة في فرضها على العالم بأسره، وإن ما تفعله لتحقيق هذا الغرض هو استبدال الأشكال البالية للنظم

---

[٢] إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود محمود، ٢٠٠٩، ص ٤٨٦.

[٣] إدغار موران، هل نسير الى الهاوية؟، ترجمة: عبد الرحيم حزل، الدار البيضاء (المغرب)، افريقيا الشرق، ٢٠١٢، ص ٨١.

[٤] آلان تورين، براديغما جديدة لفهم عالم اليوم، ترجمة: جورج سليمان، مراجعة: سميرة ريشا، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١١، ص ٢٤، ٢٦.

[٥] المرجع نفسه، ص ٢٧٦.

[٦] المرجع نفسه، ص ٣٠٨.

(ISSN: 2536 - 9555)

الاستعمارية بأشكال جديدة أكثر دهاءً في الإخضاع والهيمنة. بحجة الدفاع عن القيم الرفيعة والمعايير الحضارية الراقية.

والوسيلة التي تعتمد عليها الولايات المتحدة لتحقق هذه الهيمنة العالمية هي التدخل في شئون الدول الأخرى باسم أسباب إنسانية إلا أن الواقع يثبت لنا أن ما تقوم به هو دوراً سيئاً شيطانياً لا تسعى من خلاله إلا إلى تحقيق مصالحها هي وفرض هيمنتها العالمية[٧].

وقد ذهب أمارتيا سن إلى أن الهيمنة العالمية أصبحت متمثلة في الحضارة الغربية ويرجع ذلك إلى نظرة الغرب إلى حضارتهم على إنها أعظم الحضارات؛ إنها الحضارة الراقية المتفوقة التي نبعت منها أفكار التسامح والحرية والديمقراطية، لذلك وصلت إلى مكانة تؤهلها لأن تقوم بدور المخلص السياسي للحضارات والدول الأخرى التي عجزت عن الوصول إلى ما وصلت إليه الحضارة الغربية[٨].

وقد تحدث أولريش بيك عن الهيمنة العالمية مؤكداً أنها أصبحت الصورة الوحيدة في المسرح العالمي التي يتم الإعداد لها بكل الوسائل المباشرة وغير المباشرة؛ لقد أنتهى عصر السياسة الصغيرة وسيحمل القرن القادم الصراع من أجل السيطرة على العالم وسيؤدى ذلك إلى الالتزام المطلق لممارسة سياسة كبرى، أصبح من غير الممكن أكثر فأكثر الاكتفاء برؤية وطنية أو قومية محدودة ووحيدة البعد.

وهنا يؤكد أولريش بيك أن الوسيلة التي تعتمد عليها الدول الغربية لتحقيق الهيمنة العالمية هي التحدث باسم حقوق الإنسان؛ إنها تقدم لهم البنية الأيديولوجية

---

[٧] نعوم تشومسكى، النظام العالمى القديم والجديد، ترجمة: عاطف معتمد عبد الحميد، إشراف عام: داليا محمد إبراهيم، القاهرة، نهضة مصر، ٢٠٠٧، ص ٦، ٧.

[٨] أمارتيا صن، فكرة العدالة، ترجمة: مازن جندلى، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٠، ص ٤٧١، ٤٧٢.

الضرورية التي تبرر حملاتهم الاقتصادية والعسكرية العالمية، وبذلك يتم الجمع بين الغيرية الإنسانية ومنطق الإمبريالية في نفس الوقت، وبالتالي يصبح لهذه الدول المهيمنة الحق في التدخل في كل لحظة وفى كل مكان في شئون الآخرين(٩).

أما جون ميرشامير فقد رأى أن كل دولة من الدول العظمى تسعى إلى أن تصبح المخلص السياسي من خلال فرض هيمنتها على العالم بأسره. إنها تتنافس فيما بينها من أجل هذا الغرض، والوسيلة التي تعتمد عليها كل دولة من هذه الدول هي زيادة نصيبها من القوة العالمية إن كل دولة من هذه الدول لا ترغب فقط في أن تكون أقوى من غيرها وإنما تسعى لأن تصبح القوة العظمى الوحيدة، وبالتالي الدولة المهيمنة الوحيدة في النظام العالمي(١٠).

يعرف شيلدون وولين الشمولية المتحولة بأنها نوع جديد من الأنظمة السياسية يكون مدفوع من قبل قوى كلية مجردة، وليس من خلال حاكم شخصي، والذي ينجح من خلال فك الارتباط السياسي بدلا من التعبئة الجماهيرية، والذي يعتمد على الإعلام الخاص أكثر من الوكالات العامة لنشر الدعاية المتعلقة بتعزيز الرواية الحكومية للأحداث.

ويبدأ وولين حديثه بالتركيز على مفهوم الشمولية: أنها الأيديولوجية التي ترغب في الهيمنة على العالم، وهذه المعايير قد تم إدخالها لتوضيح الميول الموجودة في نظام القوة والتي تكون معارضة للمبادئ الأساسية للديمقراطية الدستورية، وهذه المعايير تكون متجسدة في أنها تكون مهووسة بالهيمنة والتوسع والتفوق والسيادة(١١).

---

(٩) المرجع نفسه، ص ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧.

(١٠) جون ميرشامير، مأساة القوى العظمى، ترجمة: مصطفى محمد قاسم، الرياض، جامعة الملك سعود، ٢٠١٢، ص ٢، ٣.

(11) -Sheldon s. Wolin, democracy incorporated managed democracy and the specter of inverted totalitarianism, Princeton university press, Princeton and oxford, 2008, pp ix,44

(ISSN: 2536 - 9555)

يتضح من ذلك أن الشمولية لم تنتهي بانتهاء النازية الألمانية وما يناظرها من حركات شمولية في تلك الآونة، وإنما نجدها مستمرة في وقتنا الراهن وبصور وأنماط أكبر وأعمق مما كانت عليه، وقد ساعد على ذلك التكنولوجيات المتاحة للتحكم والتخويف والتلاعب الجماعي والتي تتجاوز بكثير تلك التي كانت في الآونة السابقة(١٢).

وهنا يرى وولين أن المبدأ الأساسي في الشمولية التقليدية هو: القيادة والفكرة القائلة بأن الجماهير لا توجد كمواطنين بل كوسيلة الدعم الذي يمكن حشده حسب الرغبة من قبل القوى المهيمنة(١٣) .

إن الأنظمة النازية والفاشية كانت مدعومة من خلال حركات ثورية لم يكن هدفها فقط الاستيلاء على سلطة الدولة وإعادة تشكيلها واحتقارها؛ وإنما كانت ترغب أيضًا في الهيمنة على الاقتصاد، ومن خلال الهيمنة على الدولة والاقتصاد حصل الثوار على النفوذ اللازم لإعادة بناء المجتمع ومن ثم تعبئته، وعلى العكس من ذلك فإن الشمولية المقتبسة منها تكون جزء من الظاهرة التي تركز فقط على الدولة، إنها تقدم في الأساس التدخل السياسي في سن القوة المؤسسية والتهميش السياسي للمواطنين(١٤).

وعلى العكس من الأشكال التقليدية من الشمولية التي كانت تباهي علنا بنواياها لإجبار مجتمعاتها على الكلية المعدة مسبقًا فإن الشمولية المقتبسة منها لا يتم النظر إليها صراحة على أنها أيديولوجية أو رؤية موضوعية في السياسة العامة، عادة ما يتم تعزيزها من خلال متولي السلطة والمواطنين الذين يبدون

(12) Ibid pp ix
(13) Sheldon Wolin, Can Capitalism and Democracy Coexist?, http://therealnews.com/t2/index.php?option=com_content&task=view&id=832&Itemid=74&jumival=1250, p1
(14) Sheldon s. Wolin، democracy incorporated،p p ix،x

غالبًا غير مدركين للآثار الأعمق المترتبة على أفعالهم أو تكاسلهم، هناك إهمال وعجز عن إدراك المدى الذي يمكن أن يأخذ على محمل الجد نمط النتائج التي ربما يتم تشكيلها دون نظرة مسبقة(١٥).

وهنا يوضح ولين أن مهمته تتمثل في كيف يمكن إقناع القارئ بأن التوجه الفعلي للسياسة المعاصرة يكون نحو نظام سياسي مختلف تمامًا عكس ما يدعيه القادة السياسيين ووسطاء الإعلام وأقوال المفكرين بأنه النموذج الأول في العالم حول الديمقراطية؟ وعلى الرغم من الانتقادات التي يمكن أن توجه إلى هذا الرأي هناك أسباب للاعتقاد أن المواطنة التي يتم الزعم بأنها متسعة النطاق أصبح هناك عدم ارتياح متزايد بشأنها فيما يتعلق بتوجه الأمة المختبئ وفيما يتعلق بالدور الكبير للمال في السياسة وفيما يتعلق بمصداقية وسائل الإعلام الجماهيرية وفيما يتعلق بمصداقية نتائج التصويت.

لقد أصبحت الديمقراطية أكثر خضوعًا للخصخصة وسوف يؤدي ذلك إلى تغيير العلاقات بين المواطنين وقادتهم السياسيين(١٦).

إن مصطلح القوى العظمى يعني أن القوة تكون من داخلها أنها تتجاوز الحدود ولا تعترف بالقيود، أنها تكافح من أجل تنمية قدرتها على فرض إرادتها في الزمان والمكان الذي يكون من اختيارها، إنها تمثل نقيض القوة الدستورية، إن مشاريع القوة الخاصة بالأيديولوجية المتحولة تكون من داخلها؛ إنها لا تستمد من الأنماط الخاصة بالأيديولوجية التقليدية كما هو الحال في النازية الألمانية والفاشية الإيطالية والإستالينية الروسية، فهذه الأنظمة كانت مدعمة من خلال حركات ثورية كان هدفها الاستيلاء على سلطة الدولة وإعادة تشكيلها واحتكارها، لقد تم تصور الدولة على أنها المركز الأساسي للقوة الذي يمد بالنفوذ الضروري اللازم لتعبئة المجتمع وإعادة تشكيله فالكنائس والجامعات ومنظومات العمل ووكالات

(15) Ibid p, x
(16) Ibid p, xii, xiii

(ISSN: 2536 - 9555)

الأنباء والإعلام الخاص بالرأي العام والمؤسسات الثقافية يتم التحكم فيها أو تحييدها أو قمعها من قبل الحكومة(١٧).

وعلى النقيض من ذلك فإن الشمولية المتحولة على الرغم من أنها تستغل سلطة وموارد الدولة فأنها تكسب ديناميكياتها من خلال الاتحاد بأشكال القوة الأخرى مثل الديانات الإنجيلية وأبرزها تشجيع العلاقة التكافلية بين الحكومة التقليدية ونظام الحكم الخاص الذي تجسده المؤسسة التجارية الحديثة. والنتيجة لا تكون نظام من التعاون بين شركاء متساوين والذين يحتفظون بكياناتهم المميزة وإنما بالأحرى النظام الذي يمثل الساحة السياسية لقوة الشركات(١٨).

وهنا يرى وولين أنه عندما كانت الرأسمالية هي المعبر الأول عن الحالة الفكرية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر تم تدعيمها بوصفها الكمال المعبر عن القوة اللامركزية حيث أنها النظام المختلف عن الملكية المطلقة فليس هناك شخص أو جهة حكومية يمكن أو يجب أن يحاول توجيهها، لقد تم تصورها على أنها نظام ولكنه يتعلق بقوى لا مركزية تعمل بشكل أفضل عندما تترك وشأنها،ومن ثم اعتمدت على سياسة عدم التدخل وإذن بالمرور لكي يعمل السوق بحرية(١٩).

فالاقتصاد الذي تنتشر فيه القوة بين عدد لا يحصى من الجهات الفاعلة وحيث يفترض أن الأسواق لا يهيمن عليها أحد يفسح المجال للثقة في أشكال من القوى والتكتلات التي تسير وفق هذا المنطق المتعلق بالسوق الحر، ومن هنا تشعبت القوى في المؤسسات والشركات الكبيرة التي أصبحت بأعداد كبيرة لدرجة يصعب حصرها والتي يكون اهتمامها منصب على الفرد وليس على المواطن(٢٠).

---

(17) Ibid p، xiii
(18) Ibid p xiii
(19) Ibid p p xiii،xiv
(20) Ibid p xiv

فقد اصبحت قوة اقتصاد الشركات أساس القوة الذي تعتمد عليه الدولة فقد اصبحت طموحاتها مثل تلك الشركات العملاقة التي تسعى إلى أن تكون أكثر توسعية وأكثر عالمية وأكثر عدوانية إذا لزم الأمر، وأصبحت الدولة والمؤسسات الاقتصادية الضخمة الراعيين والمنسقين الأساسيين للقوى التي يمثلها العلم والتكنولوجيا، والنتيجة هي مزيج غير مسبوق من القوى التي تميز توجهاتها الموحدة والقوى التي لا تتحدى فقط الحدود الموجودة سياسيًا واقتصاديًا وأخلاقيًا وفكريًا أنها بطبيعتها تكون من أجل تحدي هذه القيود فإن تحديها يكون متواصل لدرجة تشمل تحدي حدود الأرض ذاتها، وهذه القوى أيضًا تكون وسائل لابتكار ونشر ثقافة تدرس المستهلكين للترحيب بالتغيير والمسرات الخاصة، وتتقبل في نفس الوقت السلبية السياسية والنتيجة الأساسية التي ترتبت على ذلك هي بناء هوية جماعية جديدة إمبراطورية وليست محلية بمعنى القرن الثامن عشر وأقل ديمقراطية(٢١).

وهنا يرى وولين أن هناك أدلة كثيرة على وجود الشمولية المتحولة؛ فإذا نظرنا داخل المجتمع نجد توجهات كثيرة تكون أبعد ما يكون عن الحكم الذاتي وسيادة القانون وتحقيق المساواة والنقاش العام المثمر وتكون موجهة نحو ما يطلق عليه وولين اسم الديمقراطية الموجهة والتي تكون بمثابة الوجه الباسم للشمولية المتحولة(٢٢).

وهنا يظهر القائد ليس بوصفه مسئول حكم واضح وديمقراطي وإنما بوصفه قائد رمزي وذو سلطة لا ديمقراطية، إنه يستحضر نعمة قوة أعلى، إنه يعد بانتصار الإرادة: ستقوم الولايات المتحدة بما يلي:

مناصرة الطموحات من أجل الكرامة الإنسانية، تعزيز التحالفات لهزيمة الإرهاب العالمي، نزع فتيل الصراعات الإقليمية، منع أعداءنا من تهديدنا وكذلك

(21) Ibid p p xv،xvi
(22) Ibid p, xvi

(ISSN: 2536 - 9555)

حلفائنا بأسلحة الدمار الشامل،الإعلان عن ميلاد حقبة جديدة من النمو الاقتصادي، توسيع نطاق دائرة التنمية من خلال المجتمعات المفتوحة وتشييد البنية التحتية للديمقراطية، تحويل مؤسسات الأمن القومي الأمريكي(٢٣).

إنها أسطورة القوى العظمى التي تحلم بها أمريكا كما حلم بها هتلر من قبل، وهذين المشهدين هما نموذجين للأسلوب الحديث المميز للخلق الأسطوري، وإنهما محورا اهتمام وسائل الإعلام المرئية؛ فإذا نظرنا إلى السينما والتليفزيون نجد أنهما يشتركا في سمة محددة هي وجود الاستبداد بمعنى محدد، إنهما قادران على سحب والقضاء على أي شيء مهما يكن يقف في طريق القمع الكلي الخاص بهما من خلال اللجوء إلى التأهيل أو الإبهام أو الحوار لتحقيق هدفهما(٢٤).

وبطريقة غريبة ولكنها هامة يتداخل هذا الإعلام مع الممارسة الدينية؛ فنجد أن الإعلاميون يشتركون مع رجال الدين في إقامة الطقوس من أجل نفس الهدف، أنهما في كلا الحالتين لا يشاركان بوصفهما مواطنين ديمقراطيين كما هو من المفترض أن يحدث، أنهم يشاركوا كمتحدثين في حفل وهذا الحديث يحدده صاحب الحفل(٢٥).

إننا الآن إمبراطورية أننا نصنع واقعنا، وعندما تدرس هذا الواقع سوف نفاجئك أننا نعمل ثانيةً لخلق وقائع جديدة أخرى يمكن أن تدرسها أيضًا وكيف سيتم دراسة هذا، نحن الممثلون في التاريخ وأنت وكل من معك سوف تقتصر مهمتكم على دراسة ما نقوم به(٢٦).

وفي ضوء ذلك يرى وولين أنه في الشمولية التقليدية فإن غزو القوة الكلية لم ينتج من التحام العواقب غير المتعمد، وإنما كان هدفا واعيا لهؤلاء الذين يقودون

(23) Ibid, p p، 1,2
(24) Ibid, p2
(25) Ibid, p 2,3
(26) Ibid, p3

الحركة السياسية. كانت الدكتاتوريات الأكثر قوة في القرن العشرين شخصية للغاية ليس فقط بمعنى أن كل منها كان لها زعيم مهيمن اكبر من الحياة ولكن أيضا لأن كل نظام كان بوجه خاص من خلق قائد كان رجلا عصاميا. فلم يقم موسوليني وستالين وهتلر بابتكار شخصيتهم فحسب وإنما بنو بالأحرى منظماتهم الدكتاتورية المميزة. فكان كل نظام لا ينفصل عن قائده أو زعيمه، أما الشمولية المتحولة فتأتى من مسار مختلف تماما فالقائد ليس هو مهندس النظام وإنما نتاج له؛ فقائد الشمولية المتحولة لم ينشئ النظام الشمولي وإنما يسعى إلى تدعيمه، إنه الطفل المدلل الذي يستفيد من الدعاية الحزبية وعلاقات الشركات العملاقة(٢٧).

كانت الأنظمة الشمولية التقليدية التي تزعمها ستالين في روسيا وموسولينى في ايطاليا وهتلر في ألمانيا من خلق قائد كاريزمي والذي لا يمكن تخيله دون بصماته، وعلى الجانب الآخر فإن الشمولية المتحولة تكن مستقلة بشكل كبير عن أي قائد بعينه، ولا تتطلب كاريزما شخصية لبقائها إن نموذجها هو رئيس الشركة الممثل العام للمؤسسة، ولكي تنتهي الدكتاتوريات التقليدية يجب أن يتم القضاء على زعمائها حيث أنها تكون ملازمة لهم وجودا وعدما أما في النظام الشمولي المتحول الذي يكون القائد نتاج له وليس مهندسه فإنه سيظل على قيد الحياة؛ فليس هناك تهديد له، وإذا كانت الأنظمة الشمولية التقليدية لها أهدافها التي يضعها زعمائها فإن قائد النظام الشمولي المتحول له مهمة محددة ليست من خلقه وليست مقتصرة عليه وإنما يشترك فيها كل السابقين عليه واللاحقين له يجب أن يسعوا إلى تنفيذ هذه المهمة المحددة والمتمثلة في الهيمنة على العالم(٢٨).

ولكي تتحقق هذه المهمة فإن الجيش يجب أن تكون له المكانة الأولى ويجب أن يتفوق على كل المؤسسات السياسية الأخرى، فإن قوى الجيش يجب أن تبقى حتى ولو كان ذلك من خلال القضاء المبرم على هذه المؤسسات، وعلى أي حال

(27) Ibid, p 42
(28) Ibid،p p 44,45

(ISSN: 2536 - 9555)

بما إنه ليس هناك أي شيء يقال عن بنية قوة الشركات، فإنها ستبقى وسيستمر نجاحها كما أنه سيتم حمايتها من خلال الجيش الذي تم خصخصته[٢٩].

على العكس من الأنظمة الشمولية التقليدية التي لم تحظى بأي فرصة للتهويل والإصرار على تحول جذري أدى إلى القضاء فعليا على كل آثار النظام السابق فقد استمرت الشمولية المتحولة بشكل غير مسبوق وغير متعمد وغير منفصلة عن التقاليد السياسية للأمة، وقد حدث التحول عندما ظهر عدم الارتباط وعندما عززت البدايات المتباينة ودعمت بعضها بعض؛ فتجد ارتباط غريب بين رجال الدين ورجال الأعمال حيث يكون كل منهم مكون بارز للنظام الذي تكون فيه الإدارة هي الوجه العام، وفى ضوء ذلك يظهر الانسجام الواضح بين المتناقضات؛ فيحدث التحول عندما نجد نظام مثل الديمقراطية ينتج مجموعة من الإجراءات الهامة التي تتحد بشكل مألوف مع نقيضه، أن النظام الجديد الخاص بالشمولية المتحولة هو نظام الذي يصرح بعكس ما هو عليه؛ فإنه يعلن شيء ويفعل نقيضه دائما، إنه يخلى مسئوليته عن هويته الحقيقية ويثق في أن انحرافاته سوف تصبح طبيعية بوصفها تغيير، إنهم على العكس تماما من الشموليين التقليديين تنكروا من هدمهم للنظام الدستوري الخاص بالماضي واحتفلوا به[٣٠].

في الأنظمة الشمولية التقليدية كان من المفترض أن القوة الكلية تتطلب أن تكون كل مؤسسات المجتمع ومعتقداته وممارساته ممثلة ومنسقة من قبل القيادة العليا؛ فإن القوة الكلية تكون متحققة فقط من خلال التحكم في كل شيء من قبل القمة، وفى الواقع الفعلي ليس هناك نظاما شموليا نجح بشكل كامل في تحقيق هذه الرؤية على الرغم من أن كل أشكال الشمولية التقليدية كانت مليئة بالفساد وكانت تعانى من عدم الكفاءة وتآكلت من خلال السخرية فإنها لم تفشل بسبب افتقارها إلى المحاولة[٣١].

(29) Ibid, p 45
(30) Ibid, p p 45,46
(31) Ibid, p 46

تعمل الشمولية المتحولة بشكل مختلف إنها تعكس الاعتقاد بأن العالم يمكن تغييره ليتوافق مع مجموعة محدودة من الأهداف مثل ضمان تلبية احتياجاته الخاصة من الطاقة وإنشاء أسواق حرة والحفاظ على التفوق العسكري والإبقاء على الأنظمة الصديقة في أجزاء العالم التي تكون حيوية لأمنها واحتياجاتها الاقتصادية، تدعى الشمولية المتحولة أيضا أنها تسعى إلى نشر الديمقراطية في كل أنحاء العالم، وقد تم فهم الديمقراطية على أنها الديمقراطية الموجهة الشكل السياسي الذي تكون فيه الحكومات شرعية من خلال الانتخابات التي تعلمت التحكم فيها(٣٢).

تتمحور الديمقراطية الموجهة حول احتواء السياسة الانتخابية أنها معادية للديمقراطية الاجتماعية التي تهتم باحتياجات المواطنين الفعلية، أن الديمقراطية الموجهة تكون ديمقراطية ممنهجة(٣٣).

وقد اصبحت الولايات المتحدة العارض الأساسي لكيف يمكن أن تكون الديمقراطية موجهة دون إظهار أنه قد تم قمعها، ولم يحدث هذا من خلال فرض القائد لإرادته أو القضاء على المعارضة بالقوة من خلال تطورات معينة ولا سيما في الاقتصاد والتي عززت التكامل والترشيد والثروة المركزة والإيمان بالقدرة على حل أي مشكلة بدءا من الرعاية الصحية إلى الأزمات السياسية وحتى الإيمان ذاته يمكن أن يتم توجيهه بأن يكون خاضع للتحكم والقدرة على التنبؤ والفاعلية من حيث التكلفة في تسليم المنتج؛ فيتم التعامل مع المصوتين على أنهم مستهلكين وتصويتهم يمكن التنبؤ به، والجماعة يتم التعامل معها على أنها مرشدة في هيكلها كأنها شركة وهيكل الشركة يكون متسلسل هرميا كتسلسل قادة الجيش، وايديولوجية النظام هي الرأسمالية والتي تكون مهيمنة بلا منازع كما كان المذهب النازي في ثلاثينيات القرن العشرين، كان التحدي السياسي هو استغلال هذه

(32) Ibid, p p 46,47
(33) Ibid, p 47

(ISSN: 2536 - 9555)

الديناميكية المختلفة الجيش الذي يرغب في مزيد من التكنولوجيا المستقبلية، والأسلحة الأكثر فتكاً، واقتصاد الشركات الذي يبحث بشكل مستمر عن منافذ وأسواق جديدة، والكنائس التي تحاول أن تستميل زوارها باسم الإيمان، ووكالات الأنباء والإعلام الترفيهي التي تحاول أن تزيد حصتها من السوق لأنها تدفع الثمن للنظام السياسي، والمثقفين الذين يرغبون في تأمين قدر من المكانة من خلال الالتحام بالمديرين التنفيذيين، والسياسيين والجنرالات والذين بلا شك يتحدثون بصدق عن السلطة(٣٤).

وهنا يؤكد وولين انه على الرغم من وجود أوجه التشابه بين النظامين الأمريكي والنازي وذلك لأنهما ينتميان إلى نفس الجنس وهو الجنس الشمولي، إلا أنهما يجسدان نمطين مختلفين على سبيل المثال كانت الايديولوجية الألمانية هي المبرر لغزو البلدان المجاورة وتمديد الهيمنة الألمانية؛ فلكي يتم تجنب الانحطاط لابد من خوض غمار الحرب، وهنا يكمن التشابه مع العقيدة الأمريكية في السعي نحو الحرب الاستباقية(٣٥).

عندما تنظر إلى النازية والفاشية، فإنهم كانوا صريحين جدًا بشأن الكثير من الأشياء: مبدأ القيادة، والمبادئ العنصرية، ولم يخفوا سرًا أنهم يريدون السيطرة على العالم، لذلك كان هناك نوع معين من الانفتاح العدواني في تلك الأنظمة التي لا تنطبق على وضعنا المعاصر(٣٦).

وإذا أمعنا النظر سوف تظهر الاختلافات بين الشمولية التقليدية والشمولية المتحولة بدرجة اكبر: ترغب قوة العولمة في قواعد عسكرية في الخارج وفى شركاء تجاريين أسواق ومستهلكين أنها سيادة وليس إمبراطورية من النمط القديم(٣٧).

(34) Ibid, p 47
(35) Ibid, p 48
(36) Sheldon Wolin, Can Capitalism and Democracy Coexist? p11
(37) Sheldon S. Wolin, democracy incorporated،p 49

أن الحميمية المصاحبة للشمولية المتحولة تختلف عن القسوة المصاحبة للشمولية التقليدية والمتمثلة في إهدار كرامة الإنسان وكره الأجانب، كانت الشموليات التقليدية تعلن بكل وضوح عن تفردها وسيادة أفكارها وتمجيد مواطنيها ورغبتها في أن يسير العالم كله تبعا لرغباتها وأفكارها، وعلى النقيض من ذلك فإن عولمة القوى العظمى تطمس التمييز بين الموطن الأصلي والدول الأجنبية؛ أنها تصدر بحماس الثقافة وفرص العمل، كما أنها ترحب بالعمال الأجانب سواء كانوا مهرة أو غير مهرة وخاصة إذا فهم غير المهرة أنهم ضيوف لهم القليل من الحقوق القانونية والسياسية أكثر من كونهم مواطنين مستقبليين(٣٨).

كانت الشموليات التقليدية تعلن بوضوح عن رغبتها في القضاء على منافسيها أما الشمولية المتحولة وإن كانت تتفق معها في نفس الهدف فإنها لا تعلنه وإنما تعلن أنها ترغب في جلب الديمقراطية إلى الدول التي تم الاستيلاء عليها من خلال الطغيان(٣٩).

إن المروجون للقوى العظمى الأمريكية ليس لديهم رغبة في إلغاء نظام يمكنهم من زيادة القوى إلى أقصى حد ممكن؛ فإن السياسة الحرة في ظل الظروف والضوابط الصحيحة لا تقف عائقا أمام نوع من القوة الشاملة وربما تكون على العكس معاونة لها، تشير الشروط الصحيحة إلى نفاذ المؤسسات التي تمكن شكل مختلف من القوة وهو الشكل الذي يبدو ظاهرة غير سياسية في أصوله وغير مقيد بحدود دستورية أو عمليات ديمقراطية وهو الذي يطلق عليه قوة الشركات والتي يكون لها تأثير على المشرعين وصانعي القرار السياسي ليس باسم الدولة المتحدة التي صورتها خيالات موسوليني وإنما شراكة باسم الدولة المدمجة، وهنا لماذا يمكن أن يتم رفض الدستور إذا كان يمكن الاستفادة منه في تقديم الدعم لتحقيق

(38) Ibid, p 49,50
(39) Ibid, p 50

(ISSN: 2536 - 9555)

ما نصبو إليه، وبالتالي يصبح الشعب مدعما لنا فيما نقوم به من خلال التعويل على التفسيرات التشريعية والقضائية التي تسير في الخط الذي نرغب فيه؟[٤٠].

وبذلك كانت تتسم الشمولية سابقا بأنها مهزلة مأساوية أما الآن فتتسم بأنها مأساة هزلية[٤١].

على العكس من الأنظمة الشمولية التقليدية التي كانت تتباهى بطابعها الشمولي فإن الشمولية المتحولة تتنصل من هويتها؛ أنها تدعى أن مؤسساتها السياسية ودستورها بعيدة كل البعد عن النظام الشمولي؛ ففي الوقت الذي يتسم فيه النظام بالشمولية الكاملة يدعى أنه من اكبر النظم الديمقراطية على مر التاريخ، أن الحديث الدائم عن غياب ما هو موجود بالفعل ينتهي بأن نتوهم بأنه غائبا حقا[٤٢].

وبذلك تختلف الشمولية المتحولة عن الشمولية التقليدية في أنها لا تتطلب كشرط لنجاحها الإطاحة بالنظام القائم؛ أنها لا تخطط علانية لقمع كل معارضة ولا تفرض توحيد ايديولوجي أو نقاء عرقي ولا تسعى إلى شكل من أشكال الإمبراطورية التقليدية، إنها تسمح بحرية التعبير وتبجل الدستور وتقدر المعارضة ولو ظاهريا، وبدلا من الثأر ضد النظام القائم تدعى أنها تدافع عنه، وهذا يعنى وجود نمط مختلف من الديناميكية يتم العمل بمقتضاه وهو نوع لا يعتمد على الاستياء من الشكل الحالي للحكومة أو النظام الاجتماعي[٤٣].

لقد تعلمت الشمولية المتحولة كيفية استخدام ما يبدو على انه قيود قانونية وسياسية هائلة واستخدامها بطرق تهزم هدفها الأصلي ولكن دون تفكيكها أو الهجوم عليها علانية، وإحدى الاستراتيجيات التي يتم الاعتماد عليها هي استغلال

(40) Ibid, p51
(41) Ibid, p 51
(42) Ibid, p 52
(43) Ibid, p 56

المؤسسات لتيسير أشكال محددة من القوى المفضلة في الوقت الذي تتحقق فيه من منافسيها، وقد أكدت الأمور المشينة والفضائح السياسية والمؤسسية أن الفساد يكون صفة مميزة للشمولية المتحولة كما كان من قبل في الشمولية التقليدية(٤٤).

على الرغم من ذلك فإن نظام الشمول الحالي قد طور من أساليبه واستراتيجياته الخاصة؛ أن عبقريته تكمن في امتلاك القوة الكاملة دون إظهار ذلك ودون إنشاء معسكرات اعتقال أو فرض توحد أيديولوجى أو قمع العناصر المنشقة بالقوة ما دامت غير فعالة، تعتمد الشمولية المتحولة على شيء أساسي يميزها عن الشمولية التقليدية وهذا الشيء هو الرغبة في ضمان الهدوء المحلى(٤٥).

بالإضافة إلى ذلك هناك اختلاف حاسم بين الشمولية التقليدية والشمولية المتحولة وهو أنه في الأولى كان الاقتصاد خاضعا للسياسة، وفى ظل الشمولية المتحولة فإن العكس هو الصحيح فإن الاقتصاد يهيمن على السياسة(٤٦).

في ظل الشموليات التقليدية كان متول السلطة يحصلون على دعم محدود من ممثلي الشركات الكبرى، وخلال سنوات الحكم كان من الواضح تماما أن الرأسمالية خاضعة لسلطة الدولة والحزب، على النقيض من ذلك نجد انه في الشمولية المتحولة تتزايد الروابط الوثيقة بين سلطة الدولة وسلطة الشركات ويتضح ذلك من خلال تعيين ممثلين لهذه الشركات في المناصب العليا في الحكومة.(٤٧)

إن مجموعات المصالح المنظمة سياسيا ذات الموارد الضخمة تعمل بشكل متواصل مما يجعلهم يشغلون محاور أساسية في العمليات السياسية فيحدث توافق بينهم وبين الإجراءات الحكومية وقد أدى ذلك إلى تغيير معنى الحكومة التمثيلية بشكل جذري، وبذلك يتم تغييب المواطنين وإبعادهم عن الارتباط المباشر

(44) Ibid, p p 56,57
(45) Ibid, p 57
(46) Ibid, p 58
(47) Ibid, p p 63,64

(ISSN: 2536 - 9555)

بالمؤسسات التشريعية التي من المفترض أنها تقف بجوار الشعب لأنها وجدت من أجله(٤٨).

وهنا نتساءل كيف يتم إعادة تعريف دور المواطن وما يحقق الصالح له؟ وهنا يرى وولين أنه منذ بداية الحرب الباردة تقريبا تم استبدال المواطنين الذين من المفترض أنهم مصدر السلطة والقوة الحكومية بالإضافة إلى أنهم مشاركون فيها بالناخبين الذين بوصفهم مصوتين يدخلون إلى الحياة السياسية في وقت الانتخاب فقط، وفى الفترات الفاصلة بين الانتخابات يتم إحالة الوجود السياسي للمواطنين إلى مواطنة ظلية تتعلق بمشاركة افتراضية؛ فبدلا من المشاركة في السلطة فإن المواطن الافتراضي يكون مدعو للحصول على آراء وعلى إجابات مقاسة على الأسئلة التي تم تصميمها مسبقا لتوجيه(٤٩).

ولكن يجب أن نكون على وعى بأن هناك اختلاف واضح بين استطلاعات الشموليات التقليدية للرأي العام والاستطلاعات المعاصرة له فعلى سبيل المثال كان اهتمام النازيين مُنصب على تشييد رأى جماهيري وتعبير متجانس عن المواطنين دون تأهيل أو وجود فروق دقيقة، ومن ثم كان الاستفتاء وخياره الصارم هو نعم أم لا، وفى المقابل فإن الطريقة الأمريكية هي الإعداد للانتخابات من خلال تقسيم المواطنين لأول مرة إلى فئات مختلفة مثل ما بين ٢٠ و٣٥ عام أو الذكور البيض فوق سن الأربعين أو الخريجات الجامعيات، وهكذا يتم تقسيم الناخبين المحتملين إلى مجموعات فرعية صغيرة يمكن حينها للمرشحين استهدافهم برسائل متعلقة بالقيم أو المتحيزات أو العادات الخاصة بفئة معينة من هذه الفئات، ويكون اثر ذلك متمثلا في زرع الشكوك التي يصعب معها تشكيل مجموعات متماسكة حول معتقدات مشتركة؛ لأنه قد تم تقسيم المواطنين إلى فئات مختلفة وتم التعامل مع كل فئة على حدا، وهذا التقسيم للمواطنين أيضا إلى فئات

(48) Ibid, p 59
(49) Ibid, p 59

يجعل من السهل التلاعب بهم ويسهل أيضا إعادة تشكيلهم وتوقع استنتاجاتهم كواقع سياسي والمستجيبين للدور المحدد لهم لا يتصرفون طبقا لرأيهم لأن إعطاء رأى لا ينطوي على أي مسئولية سياسية(٥٠).

إن المرحلة المتقدمة من فن بناء الرأي والتلاعب به تكون مؤشر على القوى المشكلة للنظام السياسي؛ أنه يجمع بين التقدم التكنولوجي والعلوم الاجتماعية الأكاديمية والعقود الحكومية وإعانات الشركات، يلعب هذا الإدماج للقوى دورا حيويا في تنسيق القوى التي تعتمد عليها القوى العظمى(٥١).

وبذلك تتسم الشموليات التقليدية بقدرتها على حشد المواطنين بنسب كبيرة جدا من أجل التصويت على كل ما يتفق مع رغبات أصحاب السلطة ويصب لصالحهم ؛فكان هناك المسيرات السياسية المؤيدة التي تدفع بها القادة إلى جانب الدعاية الدؤوبة التي تمجد الحزب والأيديولوجية والتي تحذر من الانجراف في خطر الانشقاق عنهما(٥٢).

وعلى النقيض من ذلك نجد الشمولية المتحولة تعتمد على المجتمع غير المعبأ سياسيا وهو المجتمع الذي يكون فيه المواطنون بعيدون عن أن يتم دمجهم بشكل مستمر بعملاء النظام، أنهم يجب أن يكونوا لا مباليين سياسيا فالشئون السياسية يجب أن تكون خارج نطاق اهتماماتهم؛ فإذا كان ما يقرب من نصف أو ثلثي المواطنين لا يذهبون إلى التصويت فإن ذلك سوف يجعل إدارة وتوجيه الناخبين النشطين الذين يشاركون في التصويت أسهل بكثير، إن كل مواطن غير مبالي هو متجسد صامت في قضية الشمولية المتحولة،إن المواطنين العاديين هم ضحايا ثورة مضادة أدت إلى التراجع في الكثير من الخدمات الاجتماعية التي تم الحصول عليها بعد كفاح سياسي مرير وطويل الأمد مما جعل المواطنين يشعرون

(50) Ibid, p p 59,60
(51) Ibid, p 60
(52) Ibid, p 64

(ISSN: 2536 - 9555)

بخيبة الأمل إيذاء المشاركة السياسية وايذاء كل ما يتعلق بالإجماع الوطني، وهذا التراجع لا يؤدى فقط إلى فقدان الأمل في عودة المكاسب الاجتماعية السابقة وإنما يؤدى أيضا إلى حالة العبث أو العقم السياسي التي يشعر بها الكثيرون(٥٣).

وحيث أن الشمولية التقليدية سواء كانت من النمط الايطالي أو الألماني أو السوفييتي كانت تهدف إلى تشكيل أتباع بدلا من مواطنين فإن الشمولية المتحولة يمكن أن تحقق نفس الغاية من خلال توفير بدائل مثل سيادة المستهلك وديمقراطية المساهمين التي تعطى إحساسا بالمشاركة دون مطالب أو مسئوليات، يفضل نظام الشمولية المتحولة مواطنا متواطئا بطريقة غير عقلانية بدلا من أن يكون مشاركا؛ فقد اختفت الشعارات التي تنادى بالتضحية من أجل قضية مشتركة وتم استبدالها بشعارات من قبيل استهلكوا سافروا استمتعوا(٥٤).

وقد حصلت الشمولية التقليدية على السلطة أولا من خلال الاستيلاء على النظام القائم وعندما وصلت إلى السلطة شرعت في تدميره كان الهدم مفاجئا وكاملا(٥٥).

أما الشمولية المتحولة فلها خلفية مختلفة أنها غير درامية ولم تنشأ من حركة جماهيرية أو من انقلابات أو مسيرات وليس بها انقطاع مفاجئ، وبدلا من ذلك نادرا ما يحدث تحول ملحوظ وتغيرات غير طبيعية في الميول والعواقب غير المقصودة(٥٦).

وعلى العكس من النازيين الذين كانت تسيطر عليهم الأهواء والرغبة في حكم كل شيء فإن الحكام الأمريكيين يميلون إلي إدارة السكان كما يتم إدارة شركة من خلال رئيسها من خلال الاعتماد على مصادر قوية متمثلة في الاتصال

(53) Ibid،p 64,65
(54) Ibid, p 65
(55) Ibid, p 66
(56) Ibid, p 66

الجماهيري وتقنيات الإعلام وفن صناعة الرأي العام، وفي هذه العملية لا تكون وسائل الإكراه معلنة وإنما يتم تغليفها وإخفائها، وفي هذا الإطار فإن تقنية التحكم والهيمنة تكون هي السائدة ولكن هذه المرة بمسمى جديد هو الشعور الجماعي بالتضامن، وبذلك يظل المواطنون على مسافة مما يحدث فعليا فيتحول بذلك المواطنون إلي مشاهدين تصل إليهم الأخبار من خلال الرسائل التي ترسلها لهم وسائل الإعلام التي تكون مهمتها هي تركيز الانتباه على شن الحرب الافتراضية التي تتسم بالبراءة وبالتالي يجب أن يتم تدعيمها لنبل هدفها، ولكي يتم تحفيز المشاهدين لتدعيم الهدف المنشود كان لابد من اللجوء إلى الوسائل التي تكون بمقدورها اختراقهم في أي مكان دون إشعارهم بذلك فيجب أن يكون كل ما يشاهدونه علي مدار الوقت سواء في الأفلام التي يتم مشاهدتها أو حتى في ألعاب الكمبيوتر التي يلجئون إليها في أوقات فراغهم جميعها مشبعة بالعنف والرغبة في الانتصار وهزيمة العدو بأي شكل كان، وذلك جعلهم يعتادون على رؤية المشاهد المليئة بالدم و الانتقام دون أن يحركوا ساكنا لأنها أصبحت جزء لا يتجزأ من حياتهم اليومية في كل ما يشاهدونه[٥٧].

وبذلك قدم لنا وولين مجموعة من الفروق الدقيقة بين الشمولية التقليدية والشمولية المتحولة، وقد ركز فيها على الطابع اللاشخصي للشمولية المتحولة حيث أنها لا تعتمد على وجود قائد بعينه وذلك عل عكس الشمولية التقليدية التي كان وجودها معتمد كلية على قائدها، كذلك فإن الشمولية المتحولة تعتمد في الأساس على القوة الهائلة المصاحبة لها التي ترجع في الأساس إلى القدرات العلمية والتقنية الهائلة والتي عززت من وجودها وبقائها بدرجة أكبر من الشمولية التقليدية التي كانت قدراتها وإمكانياتها محدودة إلى حد ما، وإن كنت أتفق معه في أن الشمولية المتحولة تكون مدعومة من قبل قوى وقدرات وإمكانيات هائلة لم

(57) ibid, p p107,108

(ISSN: 2536 - 9555)

يسبق لها مثيل فإن ذلك في رأيي لم يغير من جوهر الشمولية والهدف الذي تسعى إلية والذي لم يتغير إنه نفس الهدف الذي سعت إلية الشموليات التقليدية والذي تسعى إليه الشمولية المتحولة حاليا وهو: فرض الهيمنة والسيطرة بكل الطرق والوسائل الممكنة والمتاحة، ومعنى ذلك أن جوهر الشمولية لم يتغير وإن كل ما تغير هو شكلها فقط؛ لقد تغيرت الآليات والاستراتيجيات المصاحبة لها نتيجة التطورات العلمية والتقنية الهائلة، ولو أن الشمولية التقليدية قد توفرت لها هذه القدرات وتلك الإمكانيات لسارت في نفس المسار الذي تسير فيه الشمولية المتحولة، وفيما يتعلق بتأكيده على أنها لا تعتمد على قائد بعينه فهنا أتساءل معه من الذي يحرك هذه القوى العظمى؟ هل تتحرك من تلقاء ذاتها؟ من الذي يستغل هذه القدرات التقنية الهائلة لصالح الشمولية المتحولة هل هذه التقنيات تعمل من تلقاء ذاتها ام أن هناك من يحركها ويوجهها لتحقيق الهدف المنشود وهو فرض الهيمنة العالمية؟ إن كل ما حدث في رأيي هو أن الشمولية التقليدية كان يحكمها قائد محدد بعينه وإن كان له أيضا مجموعة من الأعوان؛ لأنه لا يمكن أن يقوم بهذه المهمة بمفرده إلا إنهم مجرد أداة تنفيذية لكل مخططاته وتوجهاته، أما في ظل الشمولية المتحولة فإنها لا تعتمد على قائد محدد بعينه وإنما تعتمد في الأساس على مجموعة من القادة يتقاسمون هذه المهمة فيما بينهم؛إنهم مجموعة من القادة السياسيين والاقتصاديين يحركون العالم بأصابيعهم ويكون كل منهم جزء لا يتجزأ من هذا التوجه الشمولي ويقوم كل منهم بدور يكون مكملا لأدوار القادة الأخرين الذين يسيرون معه على نفس الخط ويتبنون نفس الهدف ولكن يكون لكل منهم استراتيجياته وآلياته التي قد تتفق أو تختلف مع القادة الأخرين.

يتضح من ذلك كله أن مضمون الشمولية لن يتغير قديما وحديثا وإن كل ما تغير هو الأشكال المصاحبة لها والتي تغيرت نتيجة تطور وتغير المستجدات السياسية والاقتصادية والعلمية والتقنية، وإن كنت أتفق معه على أن الشمولية

المتحولة تحاول أن تخفي أهدافها ومراميها وأنها تتخفى تحت ستار من الشعارات الزائفة والتي على رأسها تدعيم الديموقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان، فإن ذلك في رأيي يكون نتيجة للطابع العالمي الذي يكون ملازما للقوى العظمى والذي جعل هدفها أعم وأشمل وهو فرض الهيمنة على العالم بأسره لذلك يجب أن تستميل شعوب العالم باسم الإنسانية والديموقراطية، أما الشموليات التقليدية فكانت محدودة النطاق تقتصر على مناطق بعينها وبسبب إمكانياتها وقدراتها المحدودة لا يكن باستطاعتها النفاذ إلى كل مناطق العالم ولكنها أيضا تحاول أن تستميل شعوبها باسم الوطنية والصالح العام فليس هناك في رأيي قائد شمولي على مر العصور قد أعلن لشعبه أنه جاء ليقهرهم ويستبد بهم وإنما كان يعلن لهم أنه جاء من أجلهم ومن أجل الدفاع عن مصالحهم والدفاع عنهم من أي خطر قد يحل بهم، ومعنى ذلك أن هذه الشعارات الزائفة المصاحبة للشمولية المتحولة كانت موجودة أيضا في الشموليات التقليدية ولكن كل ما تغير هو شكلها وأساليب التعبير عنها نتيجة تغير المستجدات والانفتاح العالمي الذي يقف وراءه تقنيات تكنولوجية هائلة طورت من أساليب التعبير عن هذه الشعارات جعلتها أكثر فاعلية من أي وقت مضى.

٢- إرهاصات الشمولية المتحولة

يتساءل وولين هل صيغة الشمولية الأمريكية مقبولة عقليًا حتى يمكن تصورها؟ أم أن الشمولية المتحولة هي مجرد تشهير معاصر يفرض على ماضي بريء أو أنها مثل الحب المدنس والهوية التي لا يمكن الاعتراف بها من خلال الخطاب العام الذي يفترض أن الشمولية هي عدو أجنبي؟[٥٨].

يرى وولين أنه يمكن تعريف القوى العظمى على أنها نظام موسع للقوى التي لا تقبل أي حدود بخلاف تلك التي تختار أن تفرضها على نفسها، نظامها يمزج

(58) Sheldon s. Wolin, democracy incorporated, p 15

(ISSN: 2536 - 9555)

السلطة السياسية للدولة "الديمقراطية" بحكم القانون مع الصلاحيات التي يمثلها مجمع العلوم والتكنولوجيا الحديثة وشركات رأس المال[٥٩].

إن العنصر المميز الذي تساهم فيه قوى الأمر الواقع هو أن هذه القوى العظمى هي دينامية وهي قوى دافعة إنها تراكمية، وتتطور باستمرار إلى أشكال جديدة. وتؤدي إلى تغيير كبير في الحياة ليس فقط في "الوطن" ولكن في القريب والمجتمعات البعيدة كذلك[٦٠].

وهنا يتساءل وولين كيف يتم الكشف عن الإشارات الخاصة بالشمولية؟، كيف نعرف ما أصبحنا عليه؟، كيف يكون بإمكاننا كمواطنين أن نفصل بين ما نكون عليه وبين الأوهام التي ربما تكون لدينا حول من نكون؟[٦١].

وللإجابة عن هذه التساؤلات يرى وولين أنه يمكن أن تكون البداية من الإجراءات التي تقوم بها أنظمة الحكم الحالية والتي من أبرزها التعذيب والاعتقال والمبالغة في التأكيد على الصلاحيات التي يجب أن تحوزها السلطة التنفيذية ثم نقرر بعد ذلك هل تضاف أو تشير إلى النظام الذي يمكن أن يكون فريد من نوعه والذي يمكن وصفه بالشمولية، يمكن للمرء أن يذهب أبعد من ذلك ويتأمل سلوك الأصدقاء والجيران والمتحدين والشخصيات العامة بما فيهم من سياسيين ومشاهير ومسئولين ورجال الشرطة ويقرر هل تسهم أفعالهم أو هل يكون لها مكان في نظام الشمولية[٦٢].

إنه ليس فقط ما نلاحظه وإنما ما أصبحنا عليه ما هي الخبرات المكونة للسنوات الأخيرة التي جعلتنا كمواطنين نسهم في الميول نحو الشمولية؟، وهذا

(59) Sheldon S. Wolin، politics and vision: Continuity and Innovation in Western Political Thought, princeton university press princeton and oxford, 2004, p xvi
(60) Ipid, p p xvii, xviii
(61) Sheldon s. Wolin, democracy incorporated, p 15
(62) Ibid, pp 15,16

التساؤل يثير توجه هل للتاريخ الماضي دورًا في ما وصلنا إليه ونستمر فيه؟ لقد اتسعت صلاحيات السلطة التنفيذية في السنوات الأخيرة بشكل لم يسبق له مثيل من خلال الترويج للأكاذيب والادعاءات الزائفة التي لا أساس لها وذلك دون وجود أي مقاومة تذكر يكون بمقدورها التصدي لهذه السلطة التي تخطت كل الحدود والضوابط التي يجب أن تلتزم بها(٦٣).

وهنا يؤكد وولين أن الحديث عن الخبرات الماضية يجعلنا على وعي بما حدث من قبل ويستمر في وقتنا الراهن، وهنا يمكن أن نتساءل هل هناك سوابق للشمولية المتحولة وهل يمكن أن تكون بعض هذه السوابق مستمدة من تحالفات سياسية ومذاهب متعارضة سواء كانت ليبرالية أو محافظة أو ديمقراطية أو جمهورية؟(٦٤).

منذ القرن الثامن عشر ومع ظهور الاقتصاد السياسي تحول انشغال المنظرين من اكتساب الطاقة إلى إنتاجها اعتماداً على تطور العلم الحديث وتم تنظيمها حول التطبيقات التكنولوجية الهائلة التوسع في الإنتاج الاقتصادي، وتطوير أكثر تدميرا من أي وقت مضى للأسلحة، والاختراق المتزايد من قبل الدول الغربية للعالم غير الغربي وكان كل ذلك يعني أن قوى ذات مقادير غير مسبوقة تعيد تشكيل العالم، وتقتلع الأشكال الاجتماعية والسياسية التقليدية.

والنتيجة هي مجتمع حركي، مخطط اجتماعي لقوى ذات وزن ومدى غير مسبوقين، فعلية وخفية تدفع بلا انقطاع الاصطدام والاستيعاب، لم تعد ممارسة السلطة مرتبطة بشكل أساسي بالحكم. بدلاً من ذلك، لاحظ المعلقون كيف أن أشكاله المتنوعة تعيد تشكيل المجتمع العالم عن طريق تغيير أكثر ظروف الحياة اليومية حميمية.

(63) Ibid, p 16
(64) Ibid, p 16

(ISSN: 2536 - 9555)

وبحلول القرن التاسع عشر، كان المنظرون يواجهون عالمًا متنوعًا من القوى والهيمنة التي أوجدتها البشرية كانت هناك قوى مركزة، مثل تلك الموجودة في الرأسمالية الصناعية الناشئة ودولة الأمة المركزية(٦٥).

خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر، تغير هيكل الرأسمالية من اقتصاد صغار المنتجين إلى اقتصاد تسيطر عليه احتكارات القلة للشركات الكبيرة وقد تزامن ذلك مع إنشاء بيروقراطيات حكومية، لا سيما الوكالات المتخصصة في تنظيم وتشجيع الأنشطة التجارية، مما يشير إلى تماسك السياسي والاقتصادي، تظهر الرفاهية كعنصر في هذا التكوين المعقد للدولة، الرفاه هو ابتكار للدولة الحديثة.

إن المبالغة في القوة هي دليل على كل من المركزية والسهولة التي تمنحها التقنيات الحديثة، القوة المركزية، وتقنيات الإكراه المثالية، وتفكك السكان الذين يعبرون عن عدم ترابطهم في البحث عن الجذور المفقودة لـ "الهوية"، والترابط بين الاقتصاد والنظام السياسي، هذه هي الشروط الأساسية لفهم معنى دولة الرفاهية(٦٦).

وفي هذا الإطار كان الكتاب ذوو المذهب الليبرالي يمثلون زمام المبادرة في تشجيع التغيير السياسي العلمي والتكنولوجي والتقدمي(٦٧).

وبذلك تصبح إيديولوجية الهوية الوطنية رهينة أسطورة حديثة مبكرة ذات طابع جماعي محكم بدلاً من كونها تعددية حقيقية(٦٨).

---

(65) Sheldon S. Wolin ، Tocqueville between two world: The Making of a Political and Theoretical Life, princeton university press, princeton and oxford ، 2001, p 13,14

(66) Sheldon S. Wolin، Democracy and the Welfare State, Sage Publications, Inc, Vol. 15, No. 4, Nov,1987, pp 473,474

(67) Sheldon S. Wolin ، Tocqueville between two world p 14,15

(68) Sheldon S. Wolin، Democracy, Difference, and Re-Cognition, Sage Publications, Inc, Vol. 21, No.3, Aug., 1993, pp 464, 465

إن التعددية الجديدة آخذة في الظهور لتحدي القديم، ولم تصاغ في مناشدات للقيم المشتركة المفترضة للوطنية، والدين، والأسرة، والملكية الخاصة، والآباء المؤسسين، ولكنها تعتمد على الاستفزاز، وتتباهى بالخلافات الثابتة، وتكشف بلا كلل مظالم الماضي بوصفها بعيدة جدًا في الزمن بحيث تضعف الفهم المشترك للعدالة والمسؤولية والتعويض(٦٩).

وفي ضوء ذلك رفض منظرو القوة الحديثة المفهوم الكلاسيكي للثقافة بوصفها مشتركة ومتاحة للجمهور، استعدادًا للمشاركة في النظام السياسي، كان بيكون وهوبز وديكارت معاديين للمثل الأعلى التشاركي؛ في نظرهم كان الولاء والطاعة يعبران عن الفضائل المدنية، وبذلك تظهر القوة الحديثة في نبذ ثقافة مدنية حين تشجع الثقافة التكنوقراطية لخدمة الدولة(٧٠).

من هنا يمكن وصف القرن العشرين بأنه المد العالي للقوة الحديثة عندما أتقنت أنظمة الدولة المهيمنة في العالم ثم استنفدت رؤية هوبز للقوة الهائلة، كان تجسيدها إداريًا أو بيروقراطيًا، كانت أداتها هي اللائحة الحكومية سواء ممثلة من قبل دولة الرفاهية الحديثة أو من قبل الدولة الاستبدادية، أو الأنظمة الشمولية المحتملة، طبقت الدول القوة السياسية في المقام الأول من خلال توسيع حجم ونطاق البيروقراطيات الحكومية والحزبية، وشهد عصر الصفقة الجديدة محاولات جادة في التنظيم الحكومي للشركات والأسواق المالية: "الأعمال التجارية الكبيرة"(٧١).

وبذلك يكون من الأفضل فهم القوة العظمى على أنها الهيمنة والصعود والغلبة، المصطلحات التي تشير إلى شخصية ديناميكية ومتغيرة، قبل كل شيء اقتصاد القوة، وهيكل عقلاني لتخصيص الموارد، إنها قوة خارقة تعتمد على القدرة

(69) Ibid p p 464-465
(70) Sheldon S. Wolin, Tocqueville between two world, p 29
(71) Sheldon S. Wolin, politics and vision، p xvii, xviii

(ISSN: 2536 - 9555)

على استغلال الأنظمة الموجودة مسبقًا لتقديم أو فرض أشياء جديدة فقط عند الضرورة(٧٢).

وإذا نظرنا إلى مفهوم القوى العظمى نجد أنها عالمية وأن ذلك التوسع العالمي المستمر، الذي يترافق مع المحرك من رأسمالية الشركات، هو شيء تقول أنه قلل من واقع الدولة القومية نفسها– بطريقة ما تصبح الدولة القومية غير ذات أهمية في لعبة قوة عظمى إمبراطورية عالمية(٧٣).

منذ وقت ليس ببعيد، احتفلت المجتمعات الغربية ببداية الألفية الثالثة ليس كمجرد تغيير في التقويم ولكن كإشارة إلى تحول إلى "عصر جديد" وعدت بتجاوز إنجازات الماضي في المجتمعات المتقدمة، لقد أتاح الغرب الفرصة لإلصاق هوية جماعية معينة، أن نقول من نحن، ونعلن من هم ضمن "نحن".

لا تُبنى الهوية الجماعية من التأكيدات الإيجابية فحسب، بل أصبحت ممكنة أيضًا عن طريق فقدان الذاكرة الانتقائي وإعادة ترتيب التذكر والنسيان، وبذلك تتشكل الذاكرة الجماعية لترسيخ هوية جديدة، فهم قائم يجب قمعه أو إعادة تعريفه أو التغلب عليه، قد يرغب المجتمع في النسيان جزء معين من ماضيه بسبب ارتباطاته المؤلمة: هزيمة عسكرية، قمع وحشي، سياسة استغلال مخزية، وفي المقابل يجب أن يتم تذكر بعض الأعمال النبيلة: "ثورة مجيدة"، تضحية بطولية من أجل الصالح العام انتصار حاسم(٧٤).

من أجل إيجاد علم أو نظرية جديدة، يحتاج القادمون الجدد إلى طرد على الأقل السكان الأصليين(٧٥).

---

(72) Ibid, p p xviii, xix
(73) Sheldon Wolin, Can Capitalism and Democracy Coexist? pp11
(74) Sheldon S. Wolin, politics and vision،p p 393-394
(75) Jordan Otten، Jordan Otten, corporate governance THE POLITICS OF AGENCY THEORY p.4,5.

تشير مصطلحات ما بعد الحداثة وما بعد الصناعية وما بعد الرأسمالية أن خصائص وموقع السلطة قد خضعت لعملية تحول مع الاحتفاظ بالتزام بتوسيع القوة(٧٦).

وبالنسبة لمنظري عصر ما بعد الحداثة فإن التناقض بين المظهر والواقع لم يعد قائما؛ المظهر هو كل ما هو موجود الذي قد يبدو وكأنه يعني موت الواقع، في طقوس ما بعد الحداثة قوة السيادة الحقيقية هي الاختفاء لقد تولى دور الواقع، من تلك القوة التي تثبت وتتصدر عالم المظاهر(٧٧).

وبمرور الوقت نتيجة الفوضى والاضطراب والعشوائية ظهرت القوى المتخيلة الجديدة؛ فقد تضمنت المفردات اليومية للمسئولين الحكوميين والسياسيين والإعلاميين والأكاديميين مصطلحات القوة التوسعية وتصوروا مقاييس جديدة لهذه القوة(٧٨).

وقبل نهاية القرن العشرين تم التخلي عن الرؤية المحافظة الخاصة بالانعزال، وبدأ الإعلان عن قوة أمريكا القادرة على بناء العالم من جديد(٧٩).

وإذا نظرنا إلى الجبهة الداخلية في الحرب العالمية الثانية نجد أن المجتمع كله كان معبئًا لأول مرة لفترة طويلة من الزمن، وقد نجحت الحكومة في تنظيم كل موارد المجتمع تحت الهيمنة المركزية وتوجيهها إلى هدف وحيد هو هزيمة العدو، وبذلك تم الانتقال من حالة السلم الطبيعية إلى حالة الحرب وهي حالة الطوارئ التي لا تنتهي، وكان ذلك هو الجزء الرئيسي في الصفقة الجديدة، ومن ثم اصبحت الرقابة والمشاريع العسكرية في المقدمة دائمًا، وبذلك تم تخصيص الموارد وتحديد الأولويات ليس من قبل السوق وإنما من قبل الحكومة التي تحكمت في الأجور والأرباح والأسعار وخضع كل المواطنين لسياساتها(٨٠).

(76) 562-564 Sheldon S. Wolin, politics and vision, pp
(77) Ibid, p p 394-395
(78) Sheldon s. Wolin, democracy incorporated p 22.
(79) Ibid, p p 24,25.
(80) Ibid, p 25.

(ISSN: 2536 - 9555)

لقد وفرت الحرب الباردة إطارًا لخيال جديد راديكالي لحرب كانت باردة بالمعنى الذي يجعلها تندرج خارج نطاق المعركة الفعلية، وقد أعلن مؤيدوها أنها حرب شاملة وذات أبعاد عالمية ومدة غير محددة ولكنها طويلة الأمد، وتمت تهيئة اقتصاد البلاد وميزانيتها لكي تستوعب وتساير الوضع الجديد، ومن هنا ظهرت المؤسسة الدفاعية التي تجمع بين الاقتصاد والجيش والدولة في مزيج واحد. وكل ذلك كان من شأنه أن يغير الهوية السياسية للمجتمع لعقود قادمة. ولأول مرة سيتم خوض الحرب في أغلب الأحيان دون معارك فعلية وضد عدو يعمل تحت غطاء سري، وظهرت أنماط جديدة متعلقة بالولاء والأمن الداخلي والتخريب وأعطيت وضع وأصبح لها غطاء من المعايير القانونية(٨١).

والنتيجة المترتبة على ذلك هي أن الخيال الدستوري يجب أن يتغير لكي يتكيف مع الخيال الجديد المصاحب للسلطة والأنماط الجديدة المرتبطة بها.

وعلى مدار نصف قرن كانت الحرب الجديدة تعرف من خلال مصطلحات مانوية صارمة كصراع ملحمي من أجل مصير العالم بين الدكتاتورية الشمولية التي تشجع على الإلحاد والشيوعية وبين حب التحرر والخوف من الله الذي تقوده الديمقراطية الرأسمالية للولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين(٨٢).

ومن هنا بدأ الطابع الأسطوري يخترق كل التقارير السياسية التي ارتفعت بها النغمة الدرامية بصورتها الملحمية الجذابة(٨٣).

ومن هنا ظهرت العديد من الأساطير التي تسودها الثنائيات والتي من أهمها البراءة والفضيلة ضد الشر الذي يرغب في اجتياح العالم. إن عالم ما بعد الحرب هو عالم غير مستقر مستقطب تسعى فيه نطاق السلطة وتزايدت مركزيتها(٨٤).

---

(81) Ibid, p p 27,28
(82) Ibid, p 28
(83) Ibid, p 29
(84) Ibid, p 29

والنتيجة هي أنه إذا كانت الديمقراطية المحبة للحرية هي البقاء فإنها يجب أن تنظم مواردها وتتقبل مسئولية القيادة العالمية، وهذا يعني حشد قوة شاملة متفوقة بشكل واضح بمعناها الأكثر شمولا(٨٥).

إن التذرع بالحرب كانت الوسيلة التي اعتمد عليها صناع القرار والمسئولين الحكوميين لتحقيق أهدافهم والتي ستسمح لهم بتحديد طبيعة النقاش العام وتبرير التوسع المطلوب من نطاق السلطة الحكومية التي لا تنتهك الدستور فحسب وإنما شوهته وقضت على معالمه، كان معنى الحرب طيعا ومطاطا مما سمح لصناع الصورة الجديدة بأن يضعوا معالمه كما يحلو لهم(٨٦).

كان للحرب تأثيرها أيضا على السياسة وقد أدى ذلك إلى التحول من الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية إلى الاهتمام بالقضايا الأيديولوجية؛تلك الأيديولوجيات التي كانت مناهضة للشيوعية والتي رأت أن ذلك سوف يتحقق من خلال الالتحام بالليبرالية،القوة الأساسية التي تقف خلف الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي في مقابل الشيوعية(٨٧).

إن تحقيق انتصارا عسكريا على الاتحاد السوفيتي لا يشكل سوى جزء من الصراع الأساسي، سوف يكون هناك دائما وجود للقوى الشمولية سيحاول الاتحاد السوفيتي العودة إلى المشهد ثانية وان لم يكن هو فسوف يكون هناك ما يماثله، ليس هناك لدينا اختيار يجب أن ندافع دائما عن سمو فكرة الحرية(٨٨).

ومن خلال التركيز على عامل الخوف يجب أن يشعر كل فرد بأنه مهدد دائما بخطر الهلاك ليس هو فقط وإنما كل أحباؤه أيضا(٨٩).

---

(85) Ibid, p p 29,30
(86) Ibid, p p 31,32
(87) Ibid, p 32
(88) Ibid, p p 32,33
(89) Ibid, p 33

(ISSN: 2536 - 9555)

وبدأ يتم تطوير علاقة موسعة بين الجيش واقتصاد الشركات بشكل جدي، وتم الإعلان عن إن الدفاع الوطني لا ينفصل عن الاقتصاد القوي، وقد أدى التركيز على التعبئة وإعادة التسليح إلى الاختفاء التدريجي للتنظيم والرقابة على الشركات من الأجندة السياسية الوطنية، إن الدفاع عن العالم الحر يحتاج إلى قوة العولمة التي توسع من صلاحيات الشركات وليس إلى اقتصاد يعوقه خرق الثقة، علاوة على ذلك فإنه إذا كان العدو مناهض للرأسمالية فإن كل معيار يقوي من الرأسمالية يكون ضربة موجهة للعدو، وبما أن خطوط المعركة قد تم رسمها بين الشيوعية والمجتمع الحر فإن الاقتصاد لا يجب المساس به لأنه ليس له هدف سوى تعزيز الرأسمالية. وسوف يكون الاندماج النهائي بين الرأسمالية والديمقراطية[٩٠].

ومن هنا بدأ التركيز على الدين المدني الذي يجب أن يقوم بدوره في التخيل الجديد للسلطة وكأنها مسيحية ناشئة من جديد ولكن هذه المرة تجسدها الأمة الأمريكية المؤيدة من الله للدفاع عن الخير والقضاء على الشر[٩١].

يجب أن تكون هناك تعبئة شاملة لملحمة الحرية يشارك فيها الجميع ويدعمها الإعلام والسياسيين والاقتصاديين بالإضافة إلى كل فئات الشعب من خلال التعويل على المزيج المؤثر المتمثل في الدفاع عن الحرية والشعور بالخوف من التهديد المنتظر[٩٢].

وهنا يؤكد وولين أن هناك نتيجتان حاسمتان للحرب الباردة على السياسة الداخلية أسهمت في عناصر أساسية للقوة المتخيلة الناشئة عن الصراع، النتيجة الأولى هي: تقلص المكانة التي تحتلها السياسة وتوسيع نطاق سلطة الدولة؛ فإن تزايد هيمنة السياسة الخارجية والاستراتيجية العسكرية غير من هدف ومكانة

(90) Ibid, p 34
(91) Ibid, p p 37,38
(92) Ibid, p 39

المشاركة العامة،، وكان التطور الثاني المرتبط كلية بأولوية السياسة الخارجية والتأهب العسكري هو: ظهور وشرعية النخبوية المتعلقة بفئة سياسية تم النظر إليها على أنها الأفضل والأذكى، وكان التضمين الواضح هو أن النخبوية كانت العلاج لجهل الجماهير والأساس للانتصار في الكفاح من اجل الحرية، وكانت النخبوية تدل على مطالبة مميزة بالسلطة لهؤلاء الذين لا يتسمون فقط بالذكاء والخبرة وثبات الشخصية وإنما هم أيضا يتسمون بالواقعية على العكس من الجماهير المعرضين لان يكونوا خياليين، وقد برزت أيديولوجية كاملة للنخبوية الشرعية تزعمها الكثير من الواقعيين والليبراليين الجدد(٩٣).

إن التركيز على الإرهاب والخوف الجديد يعيد إلى الأذهان آراء توماس هوبز أول منظر سياسي غربي يربط بين السلطة والخوف ويشرح كيف يمكن أن يتم التركيز على هذين العنصرين لتحقيق هيمنة مطلقة لسلطة الدولة، والأهم من ذلك انه يجعل هذه النتيجة قد تم التوصل إليها من خلال الموافقة الشعبية؛ لقد تم تذكر فجأة أن العالم الفوضوي الذي نحيا فيه يحتاج إلى أن نعيد إلى الأذهان ما أوصى به هوبز. وبالتالي اصبحت القيادة الأمريكية هي البديلة عن العالم الفوضوي الذي لا توجد فيه سلطة لإحباط العدوان وضمان السلام والأمن وفرض المعايير الدولية، وبذلك دافع الهوبزيون الجدد عن مبدأ السلطة المطلقة ودور السياسة كراعي راسخ(٩٤).

كان الليفاثان هو الصورة الأولى للقوة العظمى والإلهام الأول لتخصيص المواطن المتوافق مع متطلباتها، المواطن الذي وجد السياسة تشتيتا يجب أن يتم تجنبه، والذي إذا أنكر أن له يد في الأعمال العامة يظل مقتنعا بأنه معنى أن يكون له دور حيوي يعنى أنه يكون مكروها دون أي فائدة وأنه يهمل شئون عائلته

(93) Ibid, p p 39,40
(94) Ibid, p. 74

(ISSN: 2536 - 9555)

كان افتراض هوبز الحاسم هو أن السلطة المطلقة لا تعتمد فقط على الخوف وإنما على السلبية أيضا، وهكذا ارتفعت اللامبالاة المدنية إلى شكل من أشكال الفضيلة العقلانية حيث أن صاحب السيادة انشأ قواعد السلام وحافظ عليها والتي تمكن الأفراد من متابعة مصالحهم في ظل المعرفة الواضحة بأن قانون السيادة سوف يحميهم ويشجعهم أيضا، أن السلطة غير المحددة عمليا من ناحية والمواطنين غير المباليين بالشئون السياسية حتى يتمكنوا من الاهتمام بشئونهم الخاصة يشكلان تكامل مثالي بين الاستبداد السياسي والمصلحة الذاتية الاقتصادية(٩٥).

باختصار تصور نظرية العقد المجتمع السياسي على أنه خلق أفراد يوافقون بحرية على قبول سلطة وقواعد المجتمع السياسي؛هناك حاجة إلى العنصر التعاقدي، وأن المجتمع بطبيعته بحاجة إلى قوة قسرية لحماية الحقوق والحفاظ على السلام والدفاع ضد الغزو الخارجي(٩٦).

ربما تعرف النخبوية على أنها المبدأ السياسي الذي يفترض أن وجود القدرات غير المتساوية هو حقيقة لا يمكن إنكارها، هذا المبدأ كان أساسيًا بالنسبة للأنظمة الفاشية والنازية ويكون أساسًيا بالمثل بالنسبة للشمولية المتحولة، والحقيقة أن القدرات غير المتساوية لا تكون مع ذلك من قبيل الصدفة، واليوم في الولايات المتحدة يوجد النظام الدائري الذي يتم من خلاله إنتاج النخب والمؤسسات التي تنتجها يتم تدعيمها بوصفها مؤسسات النخب، هناك عدد صغير من المؤسسات يقوم باختيار وتدريب وتعليم وتأهيل عدد قليل من الأفراد الذين تكون لهم مواهب استثنائية في شتى المجالات، وهذه المؤسسات لا تقوم فقط بإنتاج النخب وإنما تنتج أيضا متولي السلطة، ولا تهدف المؤسسات النخبوية فقط إلى إنتاج

(95) Ibid, p. 75.
(96) Sheldon S. Wolin, Contract and Birthright, Sage Publications, Inc, Vol. 14, No. 2, May, 1998, p 180

الممارسين المؤهلين وإنما تهدف أيضا إلى إنتاج قادة متميزين في مجالهم سواء كان ذلك في القانون أو الطب أو الأعمال التجارية أو العلوم الاجتماعية والإنسانيات(٩٧).

تعكس النخبوية اليوم تطورًا محددًا لم يسبق له مثيل في التاريخ الأمريكي وهذا التطور هو دور النظريات الأكاديمية في تشكيل وإدارة وتوجيه السياسة الخارجية، هذا النسب الأكاديمي المتعلق بالنخبوية اليوم يتألف بشكل أساسي من فرعين إحداهما مستمد من المفكر السياسي المهاجر ليفي شتراوس والآخر مستمد من ابنها الأصلي صامويل هينتنجتون(٩٨).

كان هنتنجتون شخصية مألوفة في قاعات السلطة الحكومية ومراكز الفكر التي ترعاها الشركات والأوساط الأكاديمية، ولم يتردد في الكشف عن آراءه لجمهور أوسع، كان ارتباط ليفي شتراوس بتلاميذه ونادرا ما كان يشارك في النقاشات العامة ولكنه وضع فلسفة سياسية استفاد منها هؤلاء التلاميذ فأصبح الكثير منهم في أعلي المناصب في الحكومة والسياسة الخارجية والعسكرية، فقد اعتقد أن مهمته لا تكمن فقط في استعادة التعاليم القديمة وخاصة المتعلقة بسقراط وأفلاطون وأرسطو والكشف عن أراءهم عن معرفة الحياة الخيرة والمجتمع الصالح ولكن اجتذاب أيضا مجموعه متميزة من التلاميذ يتم تدريبهم وتعليمهم على أن يكون لهم شأن عظيم من خلال تطبيق ما قاموا بتعلمه وجعله في حيز التنفيذ الفعلي(٩٩).

مثل القوى العظمى ذاتها فإن الشتراوسية أسست على الخيال فيما يتعلق بالقوة، كان شتراوس خياليا فقد حذر من الضرر الذي سيلحق بالجماهير إذا

(97) Sheldon s. Wolin، democracy incorporated, p 162-163
(98) Ibid 167
(99) Ibid, p 169

(ISSN: 2536 - 9555)

تعرف الكثيرون على الفلسفة الحقيقية وعلى أي لمحة من معناها ومضامينها[١٠٠].

وقد استفادت الشمولية المتحولة من الدمج الذي قدمه شتراوس بين القوة والفضيلة فأكدت أنها تسعى من خلال قوتها الهائلة إلى تحقيق أهداف نبيلة، وبذلك أصبحت السياسة تعبر عن أعمال بطولية فاضلة وذلك من خلال تصوير عالمًا سياسيًا مثاليًا تسيطر فيه السلطة التنفيذية على النظام السياسي، وليس نظاما سياسيا تحكمه ضوابط وتوازنات ومسؤوليات تجاه المواطنين[١٠١].

بينما تهدف كل الإمبراطوريات إلى استغلال الشعوب والمناطق التي تسيطر عليها فإن الولايات المتحدة تكون إمبراطورية من نوع جديد، فعلى العكس من الإمبراطوريات الأخرى فإنها نادرا ما تحكم بشكل مباشر أو تحتل أراضي أجنبية لفترات طويلة على الرغم من أنها تحتفظ بقواعد عسكرية، إن قوتها تكون على فترات غير منتظمة علي المجتمعات الأخرى بدلا من إضفاء الطابع المؤسسي عليها، إن حكمها يميل إلي إن يكون غير مباشر ليأخذ شكل التأثير والرشاوى والضغط، إن اهتماماتها الأساسية تكون عسكرية واقتصادية مثل الوصول إلى القواعد والأسواق والحصول علي النفط، ويحدث ذلك عندما يري صناع السياسة أنه من الضروري والملح أن تكون الاحتياجات الداخلية تكون خاضعة لمتطلبات الاستراتيجيات العالمية و الاحتياجات الاقتصادية لشركاء القوة العظمى[١٠٢].

وبذلك يظهر نظام شمولي متحول، على وجه التحديد بسبب طابعه المتحول، ليس كتغيير مفاجئ للنظام أو تمزق دراماتيكي، بل كنمط تطوري[١٠٣].

---

(100) Ibid, p 169
(101) Ibid،p 172
(102) Ibid،p 191
(103) Ibid, p229.

إن الحديث عن إرهاصات الشمولية المتحولة يعني أنها لم تأتي من فراغ، ولم تكن وليدة اليوم؛ وإنما كان مخطط لها منذ فترة من الزمن، وتم تنفيذ هذا المخطط على مراحل وليس دفعة واحدة، وهذا يؤكد أن جوهر الشمولية واحد ولم يتغير، وإن كل ما تغير هو أساليب التعبير عنها، ومعنى ذلك أنها شمولية متطورة وليست متحولة؛تغير شكلها وإطارها الخارجي ولم يتغير مضمونها عن الشموليات السابقة عليها، وإن الحديث عن التغييرات المصاحبة لها والتي أدت إلى وجودها لا تعني تغيير في جوهرها فإن الحديث عن أوهام التغيير المصاحبة للألفية الجديدة لا يعني إحداث تغييرات فعلية حقيقية، ولا يعني ميلاد نظام جديد يحل محل الأنظمة القديمة؛ فالنظام القديم ظل كما هو وكل ما تغير هو الأشكال الخارجية المعبرة عنه نتيجة التطورات السياسية والاقتصادية والتقنية الهائلة، ومعنى ذلك أن أسس الشمولية ظلت كما هي وأن كل ما تغير هو تكتيكاتها وأساليبها، إنه المحافظة على جوهرها القديم ولكن في قوالب جديدة مبتكره تتلاءم مع المستجدات العالمية الحالية، والدليل على ذلك الحديث عن توسيع نطاق السلطة على المستوى الداخلي كخطوة أولى في إرهاصات الشمولية المتحولة، ومعنى ذلك أن فرض التحكم والهيمنة الداخلية يكون الأساس الأول لكل الشموليات قديما وحديثا إن كل ما حدث هو الانتقال من الهيمنة الداخلية إلى الهيمنة العالمية وذلك كان يحدث أيضا في الشموليات التقليدية ولكن هذا الانتقال في ظل الشمولية المتحولة يكون باسم دوافع إنسانية؛ فإنها كما قلنا تحاول أن تخفي أهدافها الحقيقية تحت ستار من الشعارات الزائفة ولكن جوهرها الحقيقي يكمن في فرض هيمنة وتحكم عالمي، ومعنى ذلك أن المخططات والإجراءات الأساسية لكل الشموليات تكون واحدة، وإن كل ما يتغير هو الأساليب المصاحبة لها،معنى ذلك أن أصول اللعبة لم تتغير سواء في الشموليات التقليدية أو في الشمولية المتحولة وإن كل ما تغير هو طريقة اللعب والأساليب المتبعة فيه.

(ISSN: 2536 - 9555)

وفيما يتعلق بحديثه عن الكثير من المفكرين بوصفهم إرهاصات الشمولية المتحولة فإن هذا يؤكد أن الفكر المصاحب للشمولية لم يتغير قديما وحديثا، وإن كان هناك بعض المفكرين المدعمين للشمولية فإن الكثير منهم لم يكن هدفه في الأساس التحكم والهيمنة؛ وإنما كان هدفهم التخلص من الفوضى والاضطرابات السياسية التي كانت موجودة في واقعهم السياسي كما هو الحال بالنسبة لمكيافيللي وهوبز وأن كل ما حدث هو أن قادة الشمولية في كل زمان ومكان قد استغلوا أفكارهم لخدمة مخططاتهم وأجنداتهم السياسية.

٣- الشمولية المتحولة وصناعة الأسطورة

يرى وولين أن هناك ارتباط وثيق بين الشمولية المتحولة وصناعة الأسطورة وفي ضوء ذلك يؤكد أن الشمولية تكون أولاً وقبل كل شيء مرتبطة بالسلطة؛ فإن أفكار الخيال والتخيل على الرغم من أنها تشير إلى ما هو خيالي فإنها تكون عبارات محملة بالسلطة لأنها تبدو أنها تربط السلطة بالخيال واللاواقعية، فإذا نظرنا إلى تعريف الخيال في القواميس نجد أنه القوة التي يمتلكها العقل لتشكيل مفاهيم تتجاوز هذه المستمدة من موضوعات خارجية: المخطط والمؤامرة والمشروع الخيالي؛ إنه الوجود الوهمي الكائن فقط في الخيال وليس له وجود حقيقي(١٠٤).

إن فكرة التخيل لها علاقة خاصة بالمجتمع الذي يواصل الإنجازات التكنولوجية التي تشجع أوهام منفصلة مرتبطة بالبراعة الفردية والمتمثلة في الشباب الأبدي والحصول على الجمال من خلال الجراحة وهي ثقافة تحلم بمزيد من السيطرة من خلال الإمكانيات المتزايدة بشكل مستمر، ويدعم ذلك أن الغالبية العظمى يكون لديها خيال وقليل من المعرفة العلمية(١٠٥).

يتضمن الخيال السياسي الذهاب إلى أبعد من وتحدي القدرات الحالية والموانع والقيود المتعلقة بالقوة وحدودها المناسبة واستخداماتها الخاطئة؛ إنها تتصور تنظيم

(104) Sheldon s. Wolin, democracy incorporated, p 18
(105) Ibid, p 18

للموارد يكون مثاليًا بالإضافة إلى كونه ماديًا والتي يكون الاحتمال المنسوب إليها تحديًا لتحقيقها، إن ما يتم تصوره من خلال الخيال لا يكون مجرد تحسين وإنما قفزة نوعية ومع ذلك تحافظ على عناصر مألوفة(١٠٦).

ومن هنا فإن أهم عواقب السعي نحو السلطة المتخيلة المبالغ فيها هو عدم وضوح الخطوط التي تفصل الواقع عن الخيال والحقيقة عن الكذب والخداع الذاتي، وفي تخيلها فإن السلطة لا تكون مبررة بقدر ما تكون مقدسة(١٠٧).

وهنا يؤكد وولين أنه في حين أن الممارسات الديمقراطية القوية سوف تكون متناقضة مع القوة الامبريالية ومبدأها الأساسي القائم على الهيمنة والاستغلال فإن الأساطير الديمقراطية التي اصبحت منفصلة عن الممارسة الديمقراطية تكون مفيدة للشمولية المتحولة، من المنطقي أن تستمر الأساطير الديمقراطية على ما هي عليه بعد أن فقدت الممارسات الديمقراطية جوهرها، وبالتالي تمكن الميثولوجيا والسلبية والأشكال الفارغة من خدمة نوع من النظام الشمولي(١٠٨).

إن الديمقراطية الموجهة هي عالم مُنشأ من الصور والأصوات والسيناريوهات التي لا تقوم إلا بالاتصال العرضي بالواقع اليومي لمعظم الناس،إن عالم المعلومات المُصنَّع حول الصور هو العالم الذي بنته النخب الحكومية والشركات وشكلته من أجل تعظيم أنماط السلطة التي تحكمها(١٠٩).

وفي عصر المعلومات والتواصل المحدد ذاتيًا، حيث يُقال إن المعرفة قوة، والمعرفة الجديدة أكثر قوة، تحتاج الديمقراطيات الموجهة إلى مثقفين بارعين في الكلمات والصور، يدركون أن الكلمات أهم من المعتقدات(١١٠).

---

(106) Ibid, p 18
(107) Ibid,p 20
(108) Ibid, p 52
(109) Sheldon s. Wolin, Democracy in the Discourse of Postmodernism, The Johns Hopkins University Press, Vol. 57, No. 1, spring 1990, ibid p p 27-28
(110) Sheldon s. Wolin, Democracy in the Discourse of Postmodernism, p p 28-29

(ISSN: 2536 - 9555)

إن التأثير العام لاتساع القوى خلق عالم جديد أصبح فيه كل شيء أكبر من الحياة غريبًا ومليء بالقوى الضخمة المقفلة في مسابقة من شأنها أن تحدد مصير العالم: محور الشر، أسلحة الدمار الشامل، الحضارة ضد الهمجية، وأصبحت أحداث الحادي عشر من سبتمبر موضحة في أسطورة قضت على المواجهة بين قوتين متنافستين عالميًا وتنبأت بأنه بعد محاكمات عديدة وأحداث عجيبة فإن القوة التي يباركها الخالق سوف تنتصر على القوى الشريرة(١١١).

إن الأساطير التي نشأت من أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانت مسيحية في موضوعاتها؛ فقد أصبح هذا اليوم هو المعادل السياسي ليوم الصلب المقدس المرتبط بالاستشهاد الذي حقق مهام متعددة بوصفه أساس اللاهوت السياسي، وتم تقديس الزعيم بوصفه أداة للفداء في حرب مقدسة تهدف إلى تخليص العالم من الشر(١١٢).

ونتيجة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر دخل المواطن الأمريكي إلى عالم الأساطير وهو بعد جديد ومختلف للوجود غير الدنيوي والذي تتمكن فيه القوى الخفية من خلق عالم جديد وهو عالم الطفولة المضيئة، وتروي الأسطورة في هذه الحالة قصة توضح كيف أن جيوش النور سوف تنشأ من أنقاض العالم الذي تم هدمه للتغلب على قوى الظلام، تقدم الأسطورة عدد من المآثر ولا يكون فيها وجود للحجة والبرهان؛ إنها لا تجعل العالم مفهومًا وإنما دراميًا فقط، وفي سياق تفسيرها تكتسب أعمال أبطال الأسطورة مهما كانت دموية ومدمرة التبرير اللازم؛ فقد أصبحوا مميزين يحق لهم اتخاذ إجراءات ممنوعة أخلاقيًا للآخرين، وليس هناك حاجة لحساب عدد الضحايا الذين يسقطون في تلك الحرب المقدسة(١١٣).

(111) Sheldon s. Wolin, democracy incorporated,p 9
(112) Ibid,p 9,10
(113) Ibid,p 10

وعلى الرغم من اختلاف الأساطير في أشكالها وأحجامها فإن هذه الأسطورة لها طابع محدد أنها أسطورة كونية وبنوع من المزج الغريب يتم الجمع بين الأسطورة الكونية والأسطورة العلمانية، ويمكن تعريف الأسطورة الكونية على أنها شكل درامي مع تطلعات ملحمية؛ إن موضوعها لا يكون سياق بسيط وإنما مواجهة حاسمة حتمية بين قوى لا يمكن التوفيق بينها تدعي كل منها أن قوتها تعتمد في النهاية على موارد خارقة. وأن قدراتها تتجاوز بكثير نطاق السياسات العادية، عادة تصور قوة واحدة نفسها على أنها تدافع عن العالم وتصور القوى الأخرى على أنها تسعى إلى الهيمنة من خلال استراتيجية فاسدة تنمو بشكل سريع، وعلى الرغم من أن كل منها يمتلك شكل من القوة مختلف عن منافسه فإن كل منهم يدعي أن قوته بمفردها تكون مأخوذة من مصدر مقدس لذلك فإنها تبارك بمفردها في حين أن خصمها يكون شيطانيًا، من هنا فإن ادعاءات كل طرف لا تكون حصرية بشكل متبادل فقط ومن المستحيل دحضها فإن كل طرف لا يتحمل المعارضة أو الشك أو عدم الثقة في سياساته الديمقراطية الحقيقية الحرة[١١٤].

ويتم تغذية الأسطورة بمصدر آخر والذي يبدو أكثر تنافرًا من الثقافة التكنولوجية العلمية، وهو الذي يقدم عالم متخيل يتم خلقه وإعادة خلقه بشكل مستمر من خلال الإعلان المعاصر والذي يقدم الهروب المطلوب من خلال تغليف ثقافة وسائل الإعلام الحديثة، وعلى قدر متساوي من الأهمية فإن الثقافة المقدمة من خلال الإعلان الحديث والتي تبدو للوهلة الأولى مادية وعلمانية بشكل مطلق، فإن الاختلاف عن الدين وخاصة التعاليم الإنجيلية يعزز هذه الديناميكية، فإن كل منتج يعدك بتغيير حياتك سوف يجعلك أكثر جمالاً ونضارة وأكثر إغراءً جنسيًا وبالتالي أكثر نجاحًا وكأنك تولد من جديد ولكن بصورة أفضل من التي كنت عليها من قبل، تحتوي الرسائل على وعود بشأن المستقبل متفائلة ولا مبالية

(114) Ibid, p p 10,11

(ISSN: 2536 - 9555)

مبالغة في الإعجاز والوعد وهي نفس الأيديولوجية التي يدعو إليها أصحاب الشركات وهي المبالغة في الأرباح وتجنب الخسائر ولكن دائمًا بوجه مضيء، إن الواقع الافتراضي المعلن والأخبار الجيدة للمبشر يكمل كل منهما الآخر بمباركة السماء، إن حماستهم التي تتجاوز المعتاد وتفاؤلهم الذي لا أساس له يغذيان غطرسة القوة العظمى؛ فإن كل منهما تآمر مع الآخر للسيطرة على الموارد النادرة في العالم(١١٥).

وفي ضوء ذلك يرى وولين أن لغة الأسطورة تمكن المرء من التحدث عن الإرهاب والمعاناة والألم والجريمة الفكرية والصراع ضد الآلهة، ولتسلسل الحلقات في قصة مستمرة، قصة من لقاءات ملحمية، وجروح عميقة، وهزائم وانتصارات أعداء القوة والمكر تفضيل الأشياء المشكوك فيها(١١٦).

إن الواقع الافتراضي يكون غير واقعي بطبيعته أنه يتجاوز العالم المألوف بمشاهده ومواقفه المشتركة وبإيقاعاته المحددة بالميلاد والنمو والانحدار والموت والتجديد، وقد اصبحت الحرب هي أكبر انتصار للواقع الافتراضي، أن الحرب هي لعبة متحركة يتم لعبها في غرفة المعيشة أو مشهد على الشاشة ولكن في كلا الحالتين لم تشاهد بشكل فعلي، فالحياة العادية تستمر بلا انقطاع في ظل هذه الأجواء نجد العمل والترفيه والرياضة والعطلات العائلية، وبعد الحادي عشر من سبتمبر أصبح الإرهاب واقع افتراضي آخر يتم مشاهدته فقط من خلال صوره التي أعيد خلقها وعجائبه المدمرة والتي يتم استيعابها من خلال مشهد الإرهابي الشرس الذي يتم القضاء عليه والصحفي الأسير، ولكن في شاشة عامة ينظر إليها الجميع(١١٧).

(115) Ibid،p p 12,13
(116) Sheldon S. Wolin، politics and vision،p p 484,485
(117) Sheldon s. Wolin، democracy incorporated،p 13

وعندما تظهر الأسطورة في عالم اعتاد على الثورات العلمية والعجائب التكنولوجية مثل الاستنساخ وصعود القمر فإن الأسطورة الخاصة بالجمهور يجب أن تصور معجزات القوة المألوفة والخارقة معًا، وسوف تنشغل هذه القوى العظمى بالإرهاب من أجل السيطرة على العالم ولكنها تفعل ذلك من خلال حبكة درامية ذات طبيعة هزلية من أجل إقناع الجمهور بما تقوم به من خلال الاعتماد على السرد الاسطوري، ولكن قبل أن يتم تمثيل هذه المبارزة بالشكل المطلوب وقبل أن تصبح القوة أسطورية هناك احتياج إلى عالم جديد وإلى سياق جديد يكون أسطوري وقابل للتصديق على الفور على الرغم من أنه ليس بالضرورة أن يكون صادقًا[١١٨].

وعندما تبدأ الأسطورة ليحكم صناع القرار في عالم مليء بالحقائق الغامضة والمتعنتة فإن النتيجة هي الانفصال بين الممثلين والواقع؛ إنهم يقنعون أنفسهم بأن قوى الظلام تمتلك أسلحة الدمار الشامل وقدرات نووية وأن أمتهم تكون مفضلة من قبل الله[١١٩].

إن هذه الايديولوجيا ترغب في تصوير الواقع من خلال الاعتماد على اليوتوبيا والأسطورة؛ أنها تبدأ من تشكيل مفهوم قوة توسعية والذي يتجاوز المفاهيم السابقة، وتبرر مفهومها الخاص ليس من خلال اللجوء إلى سلطة قانونية أو مبدأ سياسي وإنما من خلال أسطورة مانوية تصور شكلين منغلقين في الكفاح ضد الموت: الشكل الأول هو الممثل للعدالة المطلقة والآخر يكون ممثل للظلم المطلق، وهنا فإن كل قوة وإمكانات الطرف الأول تكون موجهة للدفاع والثأر للأبرياء، وكل المكر الخاص بالطرف الآخر يكون مؤهلاً للانخفاض مرارا وتكرارا بفضل اكبر قوة في العالم والتي تهاجم الأبرياء، يوتوبيا ضد اليوتوبيا السيئة[١٢٠].

---

(118) Ibid،p p 13,14
(119) Ibid p. 14
(120) Ibid, p. 83.

(ISSN: 2536 - 9555)

ربط وولين بين الشمولية وصناعة الأسطورة، إنني أتفق معه في ذلك كان يقال فيما مضى أن الأسطورة هي قصة خيالية لتبرير أمور واقعية وهذا ما يحدث في أيامنا هذه ولكن الأمر قد تطور نتيجة لتطور المستجدات وتطور الظروف؛ فأصبح الواقع هو ما يتم تغليفه بسياج أسطوري، والغريب كان يقال أيضا فيما مضى أن التفكير الأسطوري هو تفكير بدائي يحمل إلى حد كبير أمور خرافية أي أنه بعيد كل البعد عن الجانب العلمي، ولكن في عصرنا الراهن أصبحت الأساطير ترتبط ارتباطا وثيقا بالعلم والتقنيات الحديثة، فأصبح التطور العلمي يكشف لنا كل يوم عن عجائب وأسرار تفوق الخيال، حاولت تجذب العقول وتشد انتباه الناس، وأصبح الناس منشغلين بهذه العجائب العلمية التكنولوجية الفائقة، وقد استغل أصحاب الشمولية أو المروجون للشمولية ذلك استغلالا كبيرا بحيث أصبحوا يلفتوا انتباه الناس أكثر وأكثر لهذه العجائب التكنولوجية ويدفعوهم دفعا بكل الوسائل الممكنة لتجريب هذه العجائب التكنولوجية والبحث عنها والاستمتاع بها، وقد أدى بهم ذلك إلى تحقيق أهدافهم ومراميهم والتي على رأسها أن يصرفوا انتباه الناس عن مشكلاتهم، عن أزماتهم، عن حياتهم، عن واقعهم، عن الشئون السياسية، أصبح المواطن بعيد كل البعد عن الواقع السياسي، أصبح متفرجا مشدوها منبهرا بالعجائب العلمية التكنولوجية المغلفة بثوب أسطوري يسحر العقول ويغيب وعي الناس، وصدق الله إذ قال (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) (الأعراف، ١١٦)، ولكن هذا السحر في هذه المرة لم يكن بعيدا عن العلم والتقنية كما كان فيما مضى ولكن سحر العلم وسحر التقنية وسحر العجائب التكنولوجية التي تتطور و تتقدم كل يوم عن اليوم السابق له، ومن هنا أصبح حتى أنصار الشمولية المتحولة يغلفون قوتهم بثوب أسطوري: القوة الفائقة القوة التي لا تحدها حدود، القوة التي تبهر ولم يسبق لها مثيل، القوة التي تفوق الخيال وتتعدى الحدود، القوة التي لا يقف أمامها موانع ولا يحول بينها وبين تحقيق أهدافها ومراميها سدود ولا حواجز وكل ذلك يتم تغليفه بثوب أسطوري يخفي الحقائق ويشوه الوقائع، حتى تصل الى المرحلة التي لا تعرف فيها الصدق من الكذب والواقع من الخيال والحقيقة من الوهم، وهذا ما يرغب أن يصل إليه

الناس لدى أصحاب الشمولية المتحولة؛ فعندما يلتبس الحق بالباطل والحقيقة بالوهم والواقع بالخيال يتوه كل شيء، تتوه الحقائق، وتتوه الوقائع، ويتوه الإنسان نفسه في خضم هذا العالم الذي يتطور ويتغير ويتجدد على الدوام والذي يشده العقول ويشد الأعين ويسحر الأفئدة.

٤- آليات الشمولية المتحولة

إن الحديث عن آليات الشمولية المتحولة يكون له أهمية كبيرة لأنها تكون بمثابة الأسس التي تقوم عليها الشمولية المتحولة والركائز التي تدعم وجودها وتضمن بقائها.

وهنا يتساءل وولين ما الذي يفسر ويشجع هذا الإجماع والتدعيم لوجود الشمولية المتحولة؟ فيما مضى كان هناك تشجيع لتداول الأفكار الحرة للتنافس في السوق الحرً، ولكن في سوق الأفكار الموجهة بشكل كبير والتي يتم إدارتها من خلال شركات الإعلام يحكم البائعون ويتكيف المشترون مع ما تعلنه وسائل الإعلام نفسها في الاتجاه السائد، وبذلك تم استبدال التداول الحر للأفكار بالتداول الموجه، وحتى المنتقدين أنفسهم الذين لا يرغبون في أن يكونوا خارج المشهد فإنهم جزء من الخطة الموضوعة بأنهم يجذبون المشترين في نفس الوقت الذي لا يكون فيه بمقدورهم الخروج عن إطار الحدود والضوابط المطلوبة، والنتيجة تكن بشكل أساسي إعلام أحادي التوجه ومن هنا فإن أي مشكلة يتم تحديدها من قبل صناع القرار وما على الإعلام إلا أن يدور في الفلك المحدد له، وينطبق ذلك حتى على المُنشّقين الذين يخضعون أيضًا لتحديد صارم للدائرة التي يجب أن يتحركوا فيها ولا يتعدون نطاقها، والناقد الذي يصر على تغيير السياق يتم نبذه ووصفه بأنه ليس ذا صلة أو يساري متطرف أو يتم تجاهله كلية، فعلى المستوى النظري يكون كل فرد حر في تقديم المقالات أو الخطابات ولكن الصحيفة تختار ما يناسب غرضها فالآراء المختارة هي تلك التي تعبر عن الحدود التي تلتزم بها الصحيفة(١٢١).

(121) Sheldon s. Wolin, democracy incorporated, p7

(ISSN: 2536 - 9555)

تشير القوى العظمى إلى ظهور نظام جديد أهدافه الأساسية ليست أهداف ديمقراطية متعلقة بتعزيز الوجود الجيد لمواطنيه أو تضمينهم في العمليات السياسية؛ أن الهدف الذي تعمل من أجله الشمولية المتحولة والتي تسخر كل إمكانياتها وطاقاتها من أجله هو: امتلاك قوى ونفوذ لم يسبق له مثيل في العالم، ولكي يتحقق هذا الهدف لابد من فرض سلطة مطلقة سياسيا واقتصاديا والتي تقاس بمعيار عالمي وليس بدستور الأمة، والتي تحررت ليس فقط من الديمقراطية الدستورية وإنما من أي طابع سياسي حقيقي(١٢٢).

تمثل الشمولية المتحولة الوجه الحقيقي للقوى العظمى إنها مزيجا من القوى والتي تشمل القوى الحديثة بالإضافة إلى القوى التقليدية، أنها تضم المؤسسة التجارية التي أصبح يتم النظر إليها على أنها مدينة الله على الأرض، وتضم حتى اللاهوت الرسمي وتنظيم العلوم من أجل تقدم متواصل والتحويل المستمر للمعرفة العلمية الجديدة إلى تطبيقات تكنولوجية جديدة وخاصة التطبيقات العسكرية، إن السمة المشتركة لكل هذه القوى هي افتراض وجود تنمية غير محدودة، تحكم هذه الديناميكية السلوك الاقتصادي والسعي نحو المعرفة وإنتاج الثقافة والأسلحة العسكرية(١٢٣).

لقد وفرت التكنولوجيا الحديثة وسائل النقل المتطورة التي يسرت الانتقال عبر العالم وبالتالي يسرت الهجرة إلى الغرب، وكان لابد أن يضاف إلى تكنولوجيا التوسع أيديولوجية القدر المحتوم التي تضفى الشرعية على قيادة الغرب وتدعمها، وهذه الايديولوجيا يمكن أن تكون جزءا حيويا من تكنولوجيا القوة مثل أي اختراع آلي بشرط أن تكون ديناميكية أي إذا كانت تمتلك قوة دافعة للأمام في الوقت المناسب(١٢٤).

(122) Ibid, pp 60,61
(123) Ibid, p 61
(124) Ibid, p 61

وهنا يؤكد وولين أن الشروط المسبقة للقوى العظمى هي قابليتها لتطبيق تكنولوجيا القوى الكلية ومزجها بالأيديولوجيا التي تشجع الأنظمة التي تطمح إلى الهيمنة العالمية، وقد نجحت في تنظيم واستغلال القوى المعقدة الديناميكية الموجودة بالفعل، أن عناصرها الرئيسية تشمل: الدولة،والقوة الاقتصادية للشركات، والقوى الممثلة في دمج العلوم الحديثة، وتكنولوجيات ما بعد الحداثة، والجيش المدمن للابتكار التكنولوجي، والأصولية الدينية التي ليست غريبة عن السياسة والأسواق، والمقصود بالديناميكية يكمن في التأكيد على أنها قوى تتفوق باستمرار على حدودها السابقة، وتتجمع بمعنى أن التحدي اللانهائي والمستمر لقيود الممارسات والمعتقدات والمحرمات القائمة وليس التفوق البسيط هو القوة الدافعة لها، وهذا يجب أن يكون مصحوبا بجهد منظم لوضع الشروط التي تيسر القوة وتمحي أي تدخل من قبل اللوائح الحكومية التي تحبط الطاقات الريادية، ويكون مصحوب أيضا بنوع من التدين لان هذا النظام يعد بالرحمة وتقديم الخير والعون لكل المحرومين والمعوزين على الرغم من انه من الناحية العملية يفشل بشكل متكرر في توفير الأموال الكافية من أجل البرامج الاجتماعية والاقتصادية المصممة لمساعدة الأسر الفقيرة،؛ إنه لا يحاكى الشموليات التقليدية التي عززت قيم الصلابة والقسوة، وبدلا من ذلك فإنه يتعايش ببساطة مع ثقافة اللين والتساهل والخيال والراحة[١٢٥].

وهنا يتفق شيلدون وولين مع ميشيل فوكو(Michel Foucault١٩٢٦– ١٩٨٤) الذي رأى أن السلطة لا يمكن وضعها في قوالب جامدة لأنها ببساطة حاضرة في كل مكان؛ فهي ليست مركزة في جهة بعينها، وهي ليست الحاكم، أو الدولة، أو الشعب، أو الهيمنة المنفردة التي تمارسها أي جهة من هذه الجهات، إنها تكون مرادفة لموازين القوى الموجودة في كل مكان، فإن هذه التوازنات هي

(125) Ibid, p62

(ISSN: 2536 - 9555)

التي تكون مسئولة عن كل شيء، وهي التي تحدد ما يقال وما يتم القيام به؛ حيث إنها تتحكم في البشر تحكمًا كاملاً دون أن تشعرهم بأنها تفعل ذلك، وتحركهم بأصابعها وتوهمهم في نفس الوقت بأنهم يفعلون ما يشاءون بإرادتهم(١٢٦).

ويتفق أيضا مع إيريك فروم الذي أكد أنه في منتصف القرن العشرين بدلت السلطة صفتها المميزة؛ فأصبحت سلطة غير معلومة، سلطة مجهولة غير مرئية اغترابية، ومع ذلك فنحن جميعًا نمتثل كما من عادة الناس في مجتمع تسلطي بشدة أن يمتثلوا، وفي الحقيقة لا شيء هو السلطة إلا "هي" فماذا تكون؟ هل هي الربح؟ أم الضرورات الاقتصادية؟ أم السوق؟ أم الفهم المشترك؟ أم الرأي العام؟ أم ما يفعله "المرء" ويفكر فيه ويشعر به؟ إن قوانين السلطة المجهولة غير مرئية مثلها مثل قوانين السوق لا يمكن أن تهاجم، من يستطيع أن يهاجم غير المرئي؟ من في وسعه أن يتمرد على لا شيء؟ واختفاء السلطة المعلومة ملحوظ بوضوح في كل مناحي الحياة(١٢٧).

ويتفق أيضا مع حنة أرندت (Hannah Arend)(١٩٠٦-١٩٧٥) التي رأت أن نشأة الحركات الشمولية حدث على أثر الانهيار العام والأكثر عمقًا لكل السلطات التقليدية، فكان هذا الانهيار نتيجة مباشرة لوجود هذه الحركات والأنظمة الشمولية ذاتها؛ فقد وجدت هذه الأنظمة المناخ السياسي والاجتماعي العام الذي ساعدها على الظهور؛ لتصبح الأداة الجديدة التي تم من خلالها القضاء على كل سلطة حقيقية، والتي تم من خلالها فرض كل هيمنة ممكنة(١٢٨).

---

(١٢٦)– ميشيل فوكو، إرادة المعرفة في: تاريخ الجنسانية، ج١، ترجمة: مطاع صفدي و جورج صالح، بيروت، مركز الإنماء القومي، ١٩٩٠، ص ١٠١.

(١٢٧)– اريك فروم، المجتمع السوي، ترجمة: محمود محمود، ص ٢٦٦.

(128) Hannah Arendt, Authority in the Twentieth Century, The Review of Politics, Vol. 18, No. 4, 1956, pp. 403.

ويتفق أيضا مع نيكولاس بولانتزاس (Nicos Poulantzas) ١٩٣٦-١٩٧٩) الذي رأى أن السلطة تكون مرادفة لهيمنة مراكز القوى، وفي ضوء ذلك فإن تغير علاقات القوى قد يؤدي إلى انتقال مركز الثقل في السلطة من مركز إلى آخر من مراكز القوى بوصفه المركز الذي تنعكس فيه أكثر من غيره علاقات القوى، ويتوقف الانتقال الفعلي لمركز الثقل من مركز إلى آخر من مراكز القوة على موقعه كما يتوقف على علاقات القوى نفسها[١٢٩].

وهنا يؤكد وولين إن احد الاختلافات الأساسية بين الشمولية التقليدية والمتحولة هو اهتمام الأخيرة بصناعة المعرفة والتطبيقات المترتبة عليها؛ في ظل الشمولية التقليدية تم تجنيد المدارس والجامعات والبحث العلمي لخدمة النظام، أما المؤسسات العلمية والنقاد المستقلون فقد تم إسكاتهم أو تطهيرهم أو القضاء عليهم، وهؤلاء الذين نجو من المتوقع أنهم سيسيرون على نفس خط الحكومة والحزب، كانت المهمة الأساسية لكل المؤسسات التعليمية هي تلقين السكان أيديولوجية النظام ودمجهم فيه[١٣٠].

أما الشمولية المتحولة على الرغم من أنها تكون قادرة احيانا على تضييق الخناق على النقاد والتشهير بهم فإنها تتغذى على ولاء النخبة المخلصة الخاصة بها، وبالتالي فإنها تحصل على الدعم اللازم لها من قبل المفكرين والنقاد أنفسهم والذين أصبحوا جزء من هذا النظام ذاته، وبالتالي لا تكون في حاجة إلى قمعهم أو تضييق الخناق عليهم وذلك من خلال دمج مجموعة العقود الحكومية وصناديق الشركات والمؤسسات والمشاريع المشتركة التي تضم الباحثين الاجتماعيين والشركات الممولة والمتبرعين من رجال الأعمال الأثرياء والجامعات

---

[١٢٩] نيكوس بولانتزاس، السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية، ترجمة: عادل غنيم، بيروت، دار ابن خلدون، ١٩٨٣، ص ١٣٢-١٣٤.

[130] Sheldon s. Wolin, democracy incorporated, p 67

(ISSN: 2536 - 9555)

وخاصة جامعات الأبحاث الاجتماعية، ومن ثم تم دمج المفكرين والعلماء والباحثين بسلاسة في النظام، وبالتالي فإنها لا تكون في حاجة إلى حرق كتاب أو نفي عالم(١٣١).

وبذلك لا يظهر "المجتمع" على أنه مجموع الهياكل التي تمتص وتشكل التغيير ولكن باعتباره سلبيًا، فهو مجرد الرمز الأكثر ملاءمة لأوسع عمومية، الجسم الذي يكون كل جزء منه عرضة للتغيير، التغيير يؤدي إلى جلب التفكك والاختفاء وعدم الاستقرار في النهاية بينما المجتمع يستوعب التغيير التغيير يمتص المجتمع(١٣٢).

إن الإعلان عن عالم جديد هو عمل ايجابي يلغي العالم القديم ويتخلص من القيود القديمة والموانع على السلطة، ومن هنا تم الإعلان عن أن الولايات المتحدة هي أعظم قوة خير على الأرض واكبر مقاوم للإرهاب وإنها تكون مؤيدة من السماء، أن الإرهاب هو استجابة للإمبراطورية وإثارة الغضب الذي يسمح للإمبراطورية بالكف عن الشعور بالخجل ازاء هويتها، في ظل الإمبراطورية فإن ادعاءات السلطة يمكن نقلها إلى سياق مختلف عن السياق الذي تحدده تقاليد وقيود الحكومة الدستورية والسياسات الديمقراطية(١٣٣).

في ضوء ذلك تم إدخال تقنيات مختلفة بما في ذلك ترشيد الذاتية الديمقراطية من خلال تنظيم الناخبين من قبل الأحزاب السياسية، واختراع مجموعات المصالح المنظمة لتعويض تشكيل الإرادة الديمقراطية في الهيئة التشريعية، ودمج تلك المجموعات في العملية السياسية، والسيطرة على "الاتصالات الجماهيرية"(١٣٤).

(131) Ibid, p 68
(132) Sheldon s. Wolin, Tocqueville between two worlds, pp 451-452
(133) Sheldon s. Wolin, democracy incorporated, p 70
(134) Sheldon s. Wolin, Tocqueville between two worlds:, pp 31,32

إن اللغز هو التكرار الذي تستخدم به أيديولوجية القوى العظمى كلمة (نحن) لتشير إلى أن مشروع القوة العظمى هو مشروع تعاوني[١٣٥].

وقد أعلنت أيديولوجية القوى العظمى أن الكفاح العظيم بين الحرية والشمولية انتهى بانتصار حاسم لقوى الحرية ونموذج واحد للنجاح الوطني هو الحرية والديمقراطية والمشروع الحر، هذا النموذج الدائم الوحيد يجسد اليوتوبيا الجديدة والتي تكون لها صورتها الخاصة المتمثلة في تجميع القوى، وسوف تستخدم الولايات المتحدة هذه اللحظة لتوسيع نطاق فوائد الحرية عبر العالم: أننا سنعمل بنشاط لجلب أمل الديمقراطية والتنمية والأسواق الحرة والتجارة الحرة إلى كل مكان في العالم[١٣٦].

ومن هنا فإن أيديولوجية القوى العظمى التي تعتمد على إعادة تشكيل المجتمعات الأخرى تقتضي هذه الهيمنة السياسية والاقتصادية، وبما أن متطلبات الإغاثة الإنسانية تكون مطلوبة بشكل أفضل يجب أن نكون قادرين على المساعدة في بناء المؤسسات الشرطية وأنظمة المحاكم والمواثيق القانونية والمؤسسات الحكومية المحلية والإقليمية والأنظمة الانتخابية[١٣٧].

تعتمد الشمولية المتحولة على عبارات متناقضة كان من الصعب الجمع بينها فيما مضى مثل القوى العظمى والديمقراطية و الدستور الإمبراطوري وكان من الطبيعي كرد فعل لهذه التناقضات أن ينشأ نظاما سياسيا مختلفا عن ما هو مألوف لكي يساير هذه التناقضات[١٣٨].

وبدلا من النظام الذي تكون فيه القوى الحكومية مقاسه من خلال دستور القوى المتعددة ظهر تصور القوى متسعة النطاق والايديولوجية المنتصرة الغريبة

(135) Sheldon s. Wolin, democracy incorporated, p. 83- 84.
(136) Ibid, p. 84- 85.
(137) Ibid, p. 87.
(138) Ibid, p 97

(ISSN: 2536 - 9555)

عن الدستور، وكذلك نوع مختلف من السياسة أن وجود مسافات بين متطلبات القوى العظمى المتعلقة بالهيمنة العالمية ومثال الديمقراطية المعبرة عن الحكم الذاتي قد تم ملئها من خلال مفهوم الديمقراطية الموجهة، ومن هنا فإن القوى العظمى والديمقراطية الموجهة يسيران جنبا إلى جنب بمباركة السماء(١٣٩).

وبناءً على ذلك نحتاج إلى توسيع نطاق تعريفنا للقوى العظمى: أنها القوة غير المتوقعة من خلال الميثاق الدستوري والتي تتجاوز القدرات السياسية والمشاعر الأخلاقية لهؤلاء الذين يوظفونها، إن القوى العظمى لا تعتمد تلقائيا على أشخاص عظماء وإنما تعتمد على الإغراءات والطموحات المبالغ فيها(١٤٠).

يمكن أن تفترض إرادة القوة على سبيل المثال الحروب التي لا نهاية لها بطبيعتها: الحروب على المخدرات والإرهاب والدافع لاختراع الأسلحة أقوى من أي وقت مضى، بالإضافة إلى وجود الاقتصاد التنافسي مع "عمليات الاستحواذ" والاندماجات، الإمبراطوريات" الإعلامية، والثورات التكنولوجية المتعاقبة، والتحولات المتكررة، كل منها أكثر ديناميكية واتساعًا(١٤١).

في ضوء ذلك يرى وولين إن دستور القوى العظمى يهتم في الأساس بزيادة هذه القوى وليس بوضع حدود لها؛ أنه لا يعتمد على نوايا واضعي الإطار الخاص به وإنما على ديناميكية غير محدودة متجسدة في النظام حيث رأس المال والتكنولوجيا والعلوم تمد بمصادر القوة(١٤٢).

وإذا كانت القوى العظمى تشير إلى شكل القوى المتحررة من أي قيد و أنها تكون متطورة ومتقدمة تحت تصرف هؤلاء الذين يحكمون باسم الديمقراطية الدستورية التي لا يمكن أن تعني عمليا أو نظريا الحكم بواسطة الشعب ليس

(139) Ibid, p p 98- 99
(140) Ibed, p99
(141) Sheldon S. Wolin, politics and vision, p p, 492-494
(142) Sheldon s. Wolin, democracy incorporated, p100

عمليا لأن المسؤوليات العالمية للقوى العظمى لا تنسجم مع الحكم القائم على المشاركة، وليس نظريا لأن القوة التي تجعل القوى العظمى هائلة لا تستمد من السلطة الدستورية أو من الشعب؛ فإن شرط صعود القوى العظمى هو ضعف أو إهمال الديمقراطية والدستورية باستثناء الطابع الأسطوري الذي يمكن القوى العظمى من تزوير النسب التي تمنحها الشرعية(١٤٣).

ومن هنا فإن نمو القوى العظمى والتي يصاحبها تناقص الديمقراطية يمكن قياسه من خلال التركيز على ملكية وسائل الإعلام وما يصاحبها من ضوابط يتم فرضها على المحتوى، إن العلاقة بين تراجع الديمقراطية وملكية وسائل الإعلام تتضح من خلال التعتيم الإعلامي على كل مصادر الاحتجاج على شن الحروب سواء كانت حرب فيتنام في السابق أو الحرب على العراق في الآونة الأخيرة،إن فرض الرقابة الحالية على الاحتجاج الشعبي ضد القوى العظمى والإمبراطورية يفيد في عزل المقاومة الديمقراطية، وفي عزل المجتمع عن الاستماع إلى الأصوات المعارضة، وفي الإسراع من عملية عدم التسييس(١٤٤).

أنها الديمقراطية التي لا تثق في ذاتها وترغب في أن يقر الجميع بها على الرغم من عدم فاعليتها، أنها تدعي أنها تحقق المساواة في نفس الوقت الذي تكون فيه سياساتها تدعيما للامساواة، وبذلك فإن الاتحاد الكامل بين قوة الشركات وسلطة الحكومة يبشر بميلاد نظام الشمولية المتحولة(١٤٥).

وهنا يؤكد وولين أن هناك عناصر أساسية متعددة تشكل ديناميكيات القوى العظمى، وهذه العناصر تشمل: رأس مال الشركات،التبشير الملائكي بالمسيحية، النخبوية والقومية الأمريكية والمشاركة الاستثنائية والايمان بالنصر، إن العنصر المميز الذي تساهم به الأصولية الدينية هو ديناميكية الأمل التي تتغذى على

(143) Ibid, p101
(144) I Sheldon S. Wolin, democracy incorporated, pp107-108
(145) Ibid, pp110-111

(ISSN: 2536 - 9555)

الوعد المطلق بلحظة نصر ساحرة وهذه اللحظة سوف تتحقق على الرغم من التأخير والأذى الشيطاني والأنبياء الكاذبين، لقد أتضحت آثارها القوية في التصورات اللاهوتية التي أعتمد عليها السياسيون والتي منها ما وصف الاتحاد السوفيتي بأنه يعبر عن إمبراطورية الشر، وكذلك خدام الشر الذين خططوا لأحداث الحادي عشر من سبتمبر وهؤلاء الذين فرحو في حزننا(١٤٦).

إن التركيز على اللاهوت المسيحي هو أحد العناصر الأساسية القديمة التي تتضمن تنوعات أصولية سياسية واقتصادية، وبذلك تكون هناك صلات قديمة غير متوقعه مع ديناميكية العلم والتكنولوجيا ورأس مالية الشركات؛ أنه تزاوج غريب في القوى العظمى يضم التحالف بين قوة قديمة رجعية اقتصادية وسياسية ودينية وبين قوة تقدمية متطلعة إلى التغيير الجذري والتي يعبر عنها قادة الشركات والمبتكرين التكنولوجيين والعلماء والتي تتعلق جهودهم بالإسهام في فصل المجتمع المعاصر عن ماضيه وإبعاده عنه؛ أنه ارتباط غريب بين آمال الماضي وتطلعات المستقبل، إنه الحماس من أجل التغيير في نفس الوقت الذي يتم فيه الاستناد إلى نصوص الدستور والكتاب المقدس بوصفها حقائق شاملة لا تقبل التغيير.

ومن هنا فإن الانفصال المزعوم بين الكنيسة والدولة لا يكون له أساس في ظل الشمولية المتحولة التي تدعي أنها تسير وفقا لإرادة الله وإنها تكون مؤيدة بعون منه(١٤٧).

وعلى الرغم من أن اللاهوتيين يتمسكون بالحقائق المرتبطة بالماضي فإنهم في نفس الوقت يكونون متطلعين إلى الأمام لتدعيم تلك الحقائق، وهذا التطلع جعل اللاهوتيين يتعلقون برأس المال بوصفه الأداة التي ستمكنهم من تحقيق ما يطمحون إليه فتحولوا بذلك إلى مستهلكين يتصرفون وفقا للمبادئ التي تم تعلمها(١٤٨).

(146) Ibid, pp 16,17
(147) Ibid, pp117-118
(148) Ibid, p 118

وبذلك عززت القوى العظمى أيديولوجية برزت بقوة العناصر القديمة، كانت أبرز سمات تلك الأيديولوجية هي بعض الأصولية تتألف من عنصرين: أحدهما ديني والآخر وطني، الأول تألفت في المقام الأول من البروتستانتية المحافظة، الأصولية، والإنجيلية، يمكن اعتبار الثانية وطنية بمعنى أوسع مما هو معتاد ضمنيًا والوطنية لا تشمل فقط الولاء غير المشروط تقريبًا للأمة، وخاصة في أوقات الخطر القومي والحرب، ولكن أيضًا الولاء الشديد إلى شكل من أشكال الأصولية السياسية، الولاء لأمريكا المثالية(١٤٩).

يتضح من ذلك أن النمط المعقد للدين والسياسة متقاطعين؛أن كل منهما يجب أن يفيد الآخر، ولا يمكن لأي منهما أن يحقق خلاص الآخر، ومنذ ذلك الحين تبع ذلك أنه لا ينبغي الحكم على أحدهما بالكامل من خلال مهمة الآخر، يمكن قول هذا من خلال التأكيد على أن الأوغسطينية احتوت على العنصر الديلكتيكي القوي الذي فيه أقطاب الخير والشر والجسد والروح والكنيسة والمجتمع السياسي استقرت في إطار شامل ونظام منظم بقوة احتوت ووجت هذه الديناميكيات المرتبطة بغايتهما المقررة سلفا(١٥٠).

لا يكون من الصعب فهم القوة التي تخلق الديناميكيات عندما نرى التغيرات التي جلبتها للمجتمع، وكيف أنها حولت الطبيعة إلى منتجات، وكيف أنها أدت إلى براعتها العسكرية المدمرة، وكيف أن قدرات الصدام والرعب تكشف عن براعتها التكنولوجية(١٥١).

إن ما يتم الترويج له على الرغم من أنه لا يتم الاعتراف به علنيا هو تأسيس دين مدني على الرغم من أن الأفكار المتعلقة بهذا الدين المدني تكون سابقة على المسيحية ذاتها؛ أنها نشأت في الأساس اعتمادا على اعتبارات سياسية وليست

(149) Sheldon S. Wolin, politics and vision, p p 560,561
(150) Ibid, p p 110,111
(151) Sheldon s. Wolin, democracy incorporated, p 118

(ISSN: 2536 - 9555)

دينية والتي ترعاها المجموعات الحاكمة، فكان هناك افتراض بأن المجتمع السياسي يحتاج إلى التماسك، والحل الوحيد لكي يتحقق هذا التماسك هو: أن يعتنق المواطنون أو يتم تلقينهم مجموعه من المعتقدات والقيم والطقوس المشتركة، إن الطابع المقدس للمجتمع وحكمه يكون مستمد من القوى العليا أو الإله الذي يجب أن يتم عبادته واسترضائه إذا أراد المجتمع أن يدوم ويزدهر وينتصر على أعدائه(١٥٢).

كذلك يعرف وولين القوى العظمى بأنها: اتحاد الدولة والشركات في عصر الديمقراطية المتضائلة والأمية السياسية.

إن جوهر هذه التغيرات هو أن قوة الشركات وثقافتها لم تعد قوة خارجية تؤثر في بعض الأحيان على السياسات والتشريع؛ أنها أصبحت جزء لا يتجزأ منها لأن المواطنة اصبحت هامشية، والديمقراطية أصبحت أكثر توجيها(١٥٣).

تكمن خصوصية القوى العظمى والإمبراطورية في عدم وجود دستور رسمي لهما بمعنى أن هيكلهما وسلطاتهما موصوفة ومحددة سلفًا، يُنظر إلى صلاحياتهما على أنها خارج مخطط الشرعية التي تمنحها الدستورية، وبالتالي تستثنى من قيودها.

يمكن وصف القوة العظمى بمصطلحات فرويد على أنها غرور مدفوعة بالهوية (محرك القوة الأساسي) مع احتجاج بسيط من الأنا العليا الضعيفة (القواعد أو الضمير)، القوة العظمى تتباهى بأناها في تجاهل متعجرف لحلفائها، تتنصل من الالتزامات التعهدية عندما تجدها مقيدة، ترفض الدخول في الاتفاقيات الدولية أو الانضمام إلى الوكالات والمحاكم الدولية عندما تفرض قيودًا على حريتها في التصرف وتؤكد حقها في غزو أو شن حرب ضد أي دولة تعتبرها خطرة.

(152) Ibid, p 120
(153) Ibid, p 131

كذلك فإن ديناميكيات القوى العظمى أقوى بكثير من تلك التي كانت في الإمبراطوريات السابقة بسبب أنها مرتبطة بديناميكيات عولمة الرأسمالية(١٥٤).

إن القوى العظمى لها دستورها الخاص بها واتحادها الأكثر كمالاً فعلى العكس من الدستور المكتوب الذي يؤكد على الضوابط والتوازنات والقيود المفروضة على السلطة الحكومية ووثيقة الحقوق فإن دستور القوى العظمى غير المكتوب يكون حول القوى التي تستمد نطاقها وتأثيرها من المصادر والفرص المتاحة ومن الطموحات وليس من القيود المفروضة؛ أن تكوينها يكون معد للتزايد وليس للتقييد(١٥٥).

يعتمد دستور القوى العظمى على علاقة رمزية بين عنصرين أحدهما: سياسي والآخر: اقتصادي، **الأول** هو الإمبراطورية وتتكون من مقدار كبير من القوة العسكرية من خلال القواعد العسكرية المتناثرة في الكثير من أنحاء العالم ومن بيع الأسلحة ومن التحالفات والمعاهدات مع الدول العميلة لهم الضعيفة نسبيا، وعلى العكس من الإمبراطورية الرومانية ذات المواطنة المتسعة النطاق فإن القوة العظمى يكون لديها عملاء ومستهلكين فقط والتي تهيمن فيها الأسواق بدلا من المقاطعات المتحدة، **والعنصر الثاني** هو عولمة الشركات أنها تجلب إلى الدول الأجنبية الخدمات والبضائع الاقتصادية كما أنها تلطف من قوة المنتجات والتأثيرات الثقافية، وهذه العناصر التي ترسخ وتطور مفهوم الوطن من الحكم الذاتي داخل المجتمع السياسي إلى قاعدة الوطن من أجل الاقتصاد العالمي والاستراتيجيات العسكرية(١٥٦).

إن القوى الديناميكية التي تشمل العلم والتكنولوجيا ورأس المال تكون حيوية بشكل واضح لكي تتسع للإمبراطورية وحملة عولمة الشركات، يتصور الدستور

(154) Sheldon S. Wolin, politics and vision،p 591
(155) Sheldon s. Wolin، democracy incorporated,p p 131, 132
(156) Ibid,p132

(ISSN: 2536 - 9555)

الجديد السياسة والحكم على أنهما استراتيجية مؤسسة على القوى التي جعلها التكنولوجيا والعلوم ممكنة (بما فيها علم النفس والعلوم الاجتماعية)، إن استثمار هذه القوى يمكن مُلاكها من إعادة تعريف المواطنين على أنهم مستجيبين بدلا من أن يكونوا فاعلين وعلى أنهم موضوعات للتلاعب بدلا من أن يكونوا مستقلين(١٥٧).

وهنا يتفق شيلدون وولين مع برتراند راسل الذي رأى أن الديمقراطية كما هي قائمة في الدول الكبيرة الحديثة لا تعطي مجالاً كافيًا للمبادرة السياسية إلا لأقلية ضئيلة، وبالتالي فإن الناخب العادي إذ يجد نفسه بعيدًا كل هذا البعد عن كونه مصدر كل سلطة للجيش، والأسطول، والشرطة، والمصالح العامة يشعر أنه تابعهم الوضيع الذي واجبه "أن يرتعد ويطيع"(١٥٨).

ويتفق أيضا مع جوزيف شومبيتر في التأكيد على أنه إذا كانت إرادة المواطنين في حد ذاتها هي عامل سياسي يستحق الاحترام، فلابد من أن تكون موجودها أولاً؛ أي يلزم أن تكون أكثر من رزمة غير محددة من الدوافع الغامضة المتأرجحة بشعارات وانطباعات خاطئة(١٥٩).

ويتفق أيضا مع موريس ديفرجيه الذي رأى أن الحديث عن "حكومة الشعب بالشعب"، وحكومة الأمة من قبل ممثليها" هي تعابير جميلة يمكن أن تستثير الحماس وتسهل نمو الخطابات، لكنها لا تعني شيئًا؛ حيث أنه لم يرى شعبًا يحكم ذاته، ولن يرى ذلك أبدًا؛ إذ إن كلّ حكومة هي أوليغارشية؛ لأنها تستلزم بالضرورة سيطرة عدد قليل على الكثرة(١٦٠).

---

(157) Ibid, p132

(١٥٨)– برتراند راسل، السلطة والفرد، ترجمة: شاهر الحمود، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٦١، ص ٩٤، ٩٥، ٩٦.

(١٥٩)– جوزيف أ. شومبيتر، الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١١، ص ٤٨٩، ٤٩٠.

(١٦٠)– موريس ديفرجيه، الأحزاب السياسية، ترجمة: علي مقلد، عبد المحسن سعد، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١١، ص ٤١٩، ٤٢٠.

ويتفق أيضا مع نعوم تشومسكي في التأكيد على أنه في الحقل السياسي يكون الشعار المألوف هو "السيادة الشعبية في حكومة من قبل الشعب وللشعب"، لكن الإطار العملي مختلف تمامًا؛ فالإطار العملي هو أن الشعب يعد عدوًا خطيرًا يجب أن يسيطر عليه من أجل مصلحته، إن الجماهير يعدون "جهلة وفضوليين غرباء" يكمن دورهم في أن يكونوا "مشاهدين" وليسوا "مشاركين"[١٦١].

وفي ضوء ذلك يرى وولين أن العولمة هي تعبير ملطف عن التوسع المستمر في الخارج وانقباض السياسة في الداخل تضيق نقاط الدخول حتى يتسنى لضغوط المال فقط الوصول إلى السياسة فمثل الخصخصة السلطة العامة مستمرة وسلطة الدولة تتضاءل[١٦٢].

وهكذا فإن الديمقراطية مثل الإمبراطورية والعولمة تحصل على مكانة عالمية ولكن ما تعممه لا يكمن في ممارسة الحكم الذاتي الديمقراطي وإنما ممارسة القوة الأمريكية[١٦٣].

وبذلك تحتاج القوى العظمى إلى مواطن إمبراطوري يقبل بالضرورة العلاقة البعيدة بين هموم المواطن واهتمامات أصحاب السلطة، الذين يرحبون بإعفائه من التزامات المشاركة، والذي هو وطني بشدة، المواطن المثالي للقوة العظمى هو غير سياسي لكنه غير مستبعد[١٦٤].

وهنا تظهر الثورة المضادة والتي لا تعني العودة إلى الماضي؛ فإن القوى التي تدعمها تكون متحركة أنها تدفع المجتمع نحو توجه مختلف يتم فيه التسليم بالتفاوتات وتبريرها عقليا وربما الاحتفاء بها، وقد أدت هذه التفاوتات الثقافية

---

[١٦١]– نعوم تشومسكي، الدول المارقة (استخدام القوة في الشؤون العالمية)، ترجمة: أسامة إسبر، الرياض، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٤، ص ٤٣٩– ٤٤٢.

[162] Sheldon S. Wolin, politics and vision, p 587-588

[163] Sheldon s. Wolin, democracy incorporated, p 134

[164] Sheldon S. Wolin, politics and vision, pp 564-565

(ISSN: 2536 - 9555)

والاقتصادية والسياسية التي تدعمها الثورة المضادة إلى عدم اتخاذ أي إجراءات مستقبلية من قبل الحكومة للتخفيف من هذه التفاوتات، إن هدف استراتيجية الثورة المضادة هو إضفاء الطابع المؤسسي الدائم على دولة مضادة للديمقراطية(١٦٥).

وفي ضوء ذلك أصبحت دراسة الثورة مهمة جيدة التنظيم ومحددة في الولايات المتحدة خلال ربع القرن الماضي؛ إنه الآن مجال متخصص يستثمر فيه عدد كبير من العلماء السياسيين والاجتماعيين وقتًا وطاقة كبيرين، وتم إضفاء الطابع المؤسسي عليها، نتيجة لهذه التأثيرات وغيرها، اكتسبت دراسة الثورة تجانسًا أكبر من حيث الأسلوب، وتحولت من التفسيرات التاريخية والسياسية واعتمدت على التقنيات والمفاهيم المرتبطة بالعلوم الاجتماعية المعاصرة، تم إدخال طرق كمية وتقنيات الكمبيوتر، إلى جانب اللغة الاحتياطية "للمتغيرات" و"المؤشرات" و"الارتباطات"(١٦٦).

يتضح من ذلك أن من أهم التطورات الحديثة في العلوم الاجتماعية هي الثورة في جمع البيانات وتقييم البيانات، تعتمد هذه الثورة على التطورات في التقنيات التي يمكن من خلالها جمع البيانات وتحليلها على افتراض أن هذا البيان يعكس شعورًا واسعًا يسترشد بالممارسة الفعلية للمهنة، فإنه يوفر فكرة عن طبيعة التغييرات، وما هي عليه، وما الذي تعنيه بالنسبة لدعوات العلماء السياسيين والمنظرين(١٦٧).

ومن هنا فإن فكرة المعارضة الحقيقية عادة ما ينظر إليها على أنها تخريب، وبالتالي فإن النقد الآن يجب أن ننظر إليه ونفحصه، ونرى ما إذا كان حقًا يرقى إلى أي شيء أكثر من نوع من التوبيخ الخفيف في أحسن الأحوال، وفي أسوأ

(165) Sheldon s. Wolin، democracy incorporated, p 157
(166) Sheldon S. Wolin, The Politics of the Study of Revolution، Comparative Politics, April 1973, pp343-345.
(167) Sheldon s. Wolin, Political Theory as a vocation , University of California, Berkeleym, 1969., p.1062,

الأحوال طريقة من نوع ما تأكيد النظام الحالي بإظهار انفتاحه على النقد الذاتي(١٦٨).

الآن عدد أقل وأقل من الأصوات المعارضة التي لديها منصة حقيقية وآلية الوصول إلى الناس، وليس معنى ذلك أنه لا يوجد أشخاص يختلفون، ولكن هل لديهم طرق للتواصل ومناقشة ما تدور حوله الخلافات؟ وما يمكن أن يقال عن الوضع المعاصر الذي يحتاج إلى معالجة، أن المشكلة الآن هي أن أدوات التواصل الفعالة حقا في حالة سيئة للغاية، وليس هناك علاج فوري لهذا لأن التحوطات تأتي من داخل النظام الشمولي نفسه(١٦٩).

قلنا أن آليات الشمولية المتحولة تكون بمثابة الأسس التي تقوم عليها الشمولية؛ إنها الركائز التي تدعم وجودها وتضمن بقاءها، إنها الأداة الفعالة التي تجعل للشمولية المتحولة أساس راسخ وذلك يرجع في الأساس في رأيي إلى أن هذه الآليات هي آليات تسعى إلى الهدم ولكن باسم البناء، تسعى إلى التخريب ولكن باسم التعمير ،تقلب الحقائق، وتغيب القيم فيتوه معها كل شيء؛ إنها لا تقوم على الوقائع وإنما تقوم على الخداع والتزييف والإيهام والتلاعب، ولذلك نجد أن من أبرز هذه الآليات أنها ديناميكية متحركة ليس لها مركز ثابت ومعنى أنها ديناميكية ومتحركة يؤكد أنه من الصعب الإمساك بها؛ لأنها ليس لها مركز ثابت تتحرك منه وإنما تتحرك في ظل نقاط لا تعد ولا تحصى، ولا يكون مسئول عنها قائد بعينه وإنما يكون مسئول عنها مجموعة من الأفراد الكثيرين والمنتشرين في كل مكان، فالشمولية المتحولة بسبب ديناميكيتها يصعب التحكم فيها، ويصعب البحث عن مسئول يمكن محاسبته وتحميله مسؤولية وجود هذه الشمولية المتحولة.

إن تعدد النقاط وتشعبها ووجودها في مراكز قوة لا حصر لها يجعلها أكثر انتشارا وأكثر رسوخا وأكثر تدعيما وأكثر ثباتا، إن ديناميكيتها المتحركة تؤدي إلى

(168) Sheldon Wolin, Can Capitalism and Democracy Coexist? p14
(169) Ipid,p17

(ISSN: 2536 - 9555)

ثباتها ورسوخها ودوامها، إن الديناميكية هي آلية أساسية من آليات الشمولية المتحولة والتي تجعل لها وجود يصعب زعزعته والمساس به.

كذلك من آليات الشمولية المتحولة إنها تجمع بين المتناقضات تظهر شيء كما قلنا وتخفي شيء؛ تعلن أنها جاءت من أجل الإنسانية ومن أجل الكرامة ومن أجل الحقوق في حين إنها تقضي على كرامة الإنسان وتكون أكبر هادم للحقوق وأكبر مدمر للإنسانية، ولكن الترويج لهذه الشعارات الزائفة في كل وقت وفي كل لحظة عبر وسائل الإعلام واستخدام التقنيات الهائلة يجعلها تتحول إلى حقيقة يصدقها الناس ويؤمنون بها بل ويدافعون عنها في بعض الأحيان، إن استمرار الترويج للشيء صباحا ومساءا في كل ليلة ونهار يجعله يمكن أن يتحول إلى حقيقة حية ملموسة يؤمن بها الناس ويصدقوها ويحلمون بها ويدافعون عنها؛ ففي ظل الجمع بين المتناقضات تتوه الحقائق وتنهار القيم وتضيع معالم كل شيء.

وكذلك من آليات الشمولية المتحولة الجمع بين الدين والسياسة لقد وجد السياسيون أنهم بحاجة إلى تدعيم أكبر يقنع الناس، وأن الطابع الديني أو الوازع الديني له تأثير على الناس حتى في الشعوب المتقدمة؛ فإن وجود الدين والإيمان له أهمية كبيرة، وصدق ماركس إذ قال إن الدين افيون الشعوب وهذا هو ما تفعله القوى العظمى التي تعلن أنها مؤيدة من الله وأنها تسير ببركة الله وأنها جاءت لنصرة ما جاء في الكتب المقدسة الدفاع عن الإنسانية وحماية البشر، فادعت أنها تمثل قوى الخير وإن كل ما يقف أمامها يمثل قوى الشر والشيطان، وهذا يذكرنا بأوغسطين الذي ذهب إلى أن كل من يسير في طريق المسيحية هو في طريق الله وكل من لا يسير في طريق المسيحية هو في طريق الشيطان، فجاءت القوى العظمى لتقول أن كل من يسير في طريق أمريكا أو في طريق القوى العظمى فهو في طريق الله، وأن أي قوى تحاول أن تقف أمامها وتحاول أن ترفض تعاليمها وتحاول أن تقف لها بالمرصاد فهي تمثل قوى الشر والشيطان ويجب أن يتم القضاء عليها.

إن هذا الاندماج بين الدين والسياسة في رأيي لم يكن جديدا أبدا؛ إنه وسيلة الغرب على مر العصور، وإذا تذكرنا العصور الوسطى والحروب الصليبية وكيف أنها كانت تدعي أنها تسير ببركة الله ومعونة الله وتأييد الله، إن الفصل بين السياسة والدين المزعوم هو أكذوبة غربية آمنا بها وصدقناها ودافعنا عنها وليس لها وجود على أرض الواقع، دائما يتم التلاعب باسم الدين تستغل السياسة الدين لتحقيق مصالحها ومآربها باسم التأييد الإلهي والدفاع عن قوى الخير ضد قوى الشر والظلام.

ومن هذه الآليات أيضا أن هذه القوى العظمى أصبحت مسؤولة عن انتاج العلم والمعرفة، وأصبحت المتحكم في وجود التقنيات العلمية والتكنولوجية الهائلة التي تستغلها لتحقيق مصالحها وأهدافها، والغريب في الأمر أنها أصبحت تستميل الكثير من المفكرين والعلماء والباحثين الذين أصبحوا أوباقا لها جزء لا يتجزأ من أجنداتها ومخططاتها السياسية فعندما يصبح العلماء والمفكرون والباحثون أداة في يد أصحاب الشمولية يحركونهم بأصابعهم كما يشاءون من الطبيعي أن تتوه الحقائق ويتغير معالم كل شيء، إن هؤلاء المفكرين والعلماء من الطبيعي أن يكونوا هم أداة للإصلاح وأداة للبناء وأداة للتعمير وليس وسيلة يستغلها المروجون للشمولية لتكون معول للهدم والخراب والتدمير.

يتضح من ذلك إن آليات الشمولية المتحولة هي مجموعة من الاستراتيجيات المحكمة التي تتداخل فيما بينها والتي يكمل كل منها الآخر، ويكون كل جزء منها لا يتجزأ من الآخر؛ إنها التطور والتقدم الهائل في كل الإمكانيات والقدرات الذي جعل لوجود هذه الاستراتيجيات وتلك الآليات وجود حقيقي حي ملموس على أرض الواقع، وجعلها أكثر فاعلية وهدما وفتكا من كل العصور السابقة التي لم تتوفر لها هذه الإمكانيات وتلك القدرات، ذلك فإن الفرق بين الشمولية المتحولة والشموليات التقليدية ليس في جوهرها لأن كما قلنا جوهرها واحد وهو فرض الهيمنة والتحكم ولكن في الاستراتيجيات والآليات المعبرة عنها في الأشكال والأساليب المصاحبة لها والتي أدت إلى ترسيخها ووجودها بشكل يصعب كشفه أو القضاء عليه.

(ISSN: 2536 - 9555)

٥- الديموقراطية الهاربة بوصفها علاج للشمولية المتحولة

يرى وولين أنه من الصعب التصدي للشمولية المتحولة ومواجهتها بشكل مباشر بسبب القدرات والإمكانيات الهائلة المصاحبة لها والتي أدت إلى ترسيخ دعائمها،ومن هنا يكون من الصعب إيجاد العلاج الشافي القادر على القضاء على داء الشمولية المتحولة تماما لذلك بحث عن الدواء الذي يمكن أن يخفف من حدت هذا الداء ويكمن هذا العلاج فيما أطلق عليه أسم الديموقراطية الهاربة ويقصد بها: مجموعة النضالات التي تدافع عن الكرامة والحقوق الإنسانية وتحاول أن تتصدى للكثير من المشكلات والأزمات التي يعاني منها البشر في كل مكان، وأطلق عليها اسم هاربة لأنه ليس لها مركز ثابت ولا تعتمد على المؤسسات الرسمية أو حكم الأغلبية؛ وإنما تعتمد على الجهود الذاتية التي تقوم بها مجموعات صغيرة متفرقة تحاول أن يكون لها دورا إيجابيا في رفع الظلم والمعاناة الذي تتسبب فيه هذه الشمولية المتحولة.

وهنا يؤكد وولين أنه في حين أن الإمبراطورية الأمريكية قد تستمر فإن الهيمنة الأمريكية تضعف؛ إن التكلفة الهائلة للحرب والحصة المتزايدة للميزانية الوطنية التي يطالب بها الإنفاق الدفاعي، والعجز الوطني المتصاعد، والديون الخارجية المتزايدة، والنقص في النفط، والاقتصاد المتقطع، والشبكة الاجتماعية الممزقة تشير إلى إن الأمة لم تعد قادرة على تحمل تكاليفها، ودعم الطموحات الإمبراطورية الفخمة(١٧٠).

وعلى الرغم من ذلك لن يفسر شفق الإمبراطورية بالضرورة زوال الشمولية المتحولة؛ إن حقيقة الإرهاب جنبا إلى جنب مع الخيال الذي تميزت به في الوعي الوطني، ستوفر مبررا كافيا للاحتفاظ بالأجهزة الأمنية، ودعم الصناعة الدفاعية، ورعاية "عامل الخوف"(١٧١).

(170) Sheldon S. Wolin, democracy incorporated, p 240,241
(171) Ibid, p 141

وفي ضوء ذلك يرى وولين أنه على مدار اغلب فترات التاريخ الغربي كانت الديمقراطية بعيده عن الأساس الذي جاءت من أجله فكانت مجهولة فعليا، وباستثناء أثينا القديمة حيث سادت الديمقراطية بشكل عام لم يظهر أي مثال على نظام ديمقراطي خلال ألفي عام تالية حتى في دستور مؤسسينا، كانت الديمقراطية عنصراً واحداً فقط، ولم تكن الأكثر قيمة على الإطلاق، فقط في القرن العشرين كانت هناك أنظمة سياسية ديمقراطية عندما يتم الحكم عليها من خلال معايير رسمية مثل حق الاقتراع العام لجميع المواطنين البالغين والحقوق القانونية التي يتمتع بها جميع المواطنين على قدم المساواة، الصحافة الحرة والأحزاب السياسية، وأنظمة التعليم العام الشاملة(١٧٢).

بالإضافة الى ذلك هناك قلة من الفلاسفة إن وجدوا، يهتفون للديمقراطية سقراط، أفلاطون، ديكارت، هوبز، سبينوزا، ليبنيز، هيوم، نيتشه: ليسوا ديمقراطيين(١٧٣).

إذا كانت العامة قد تشكلت، فسيكون عليها أن تعمل من الخارج أو ضد النظام، ونتيجة لذلك كان العمل الديموقراطي غير رسمي، مرتجلًا، وعفويًا ما يمكن تسميته "الديمقراطية الهاربة"(١٧٤).

عادة ما يتم تحريك العمل الديموقراطي بواسطة المظالم المحسوسة وليس في البداية من خلال التوق إلى المشاركة السياسية بسبب المطالب المرهقة في كسب "العيش"، والموجودين في ظل ظروف قاسية، لا يكاد التفاني في الحياة السياسية يمثل مهنة يمكن تصورها، في حين أن الحكم هو نشاط دائم متفرغ فإن السياسة الشعبية هي حتمية عرضية، ولدت من الضرورة، ارتجالية أكثر منها مؤسسية، إنها تكون "هاربة"(١٧٥).

---

(172) Ibid, p 242
(173) Sheldon S. Wolin، Democracy in the Discourse of Postmodernism, The Johns Hopkins University Press, Vol. 57, No. 1, spring 1990, p15
(174) Sheldon s. Wolin, democracy incorporated, p255
(175) Ibid, p 255

(ISSN: 2536 - 9555)

في الأوقات الماضية، ناضلت الديمقراطية ضد "الأنظمة القديمة"، اليوم في الولايات المتحدة، وضع الديمقراطية الموجهة ودور أتباعها هي عكس ما كانوا عليه في الماضي، بكل بساطة ناضل الديمقراطيون الأوائل من أجل ما لم يكن لديهم، إن التحدي الذي يواجه الديمقراطيين اليوم يتمثل في استعادة الأرض المفقودة، و"تعميم" المؤسسات والممارسات السياسية التي أصبحت مقطوعة عن السيطرة الشعبية(١٧٦).

وهنا يتساءل وولين هل الديمقراطية فقط هي التي تفشل؟ ويجيب على ذلك مؤكدا أن كل يوم يجلب دليلا جديدا على أن القوة الأمريكية تتعرض للتحدي في جميع أنحاء العالم، وأن نفوذها الإمبراطوري يضعف، وأن هيمنتها الاقتصادية العالمية هي شيء من الماضي، وأنها قد استنزفت في حرب لا يمكن الفوز بها ولا نهاية لها ضد الإرهاب، وهنا يتساءل أيضا هل الإمبراطورية الفاشلة هي فرصة لإحياء ديمقراطي؟ أم هل يترك هذا الفشل سليماً نحو النزعات الشمولية المتحولة؟ بأي طريقة تفشل الديمقراطية؟ ما الذي يفترض أن تجلبه الديمقراطية إلى العالم الذي لم يكن موجودًا من قبل؟ قد تكون الإجابة المختصرة على ذلك هي أن الديمقراطية تدور حول الظروف التي تجعل من الممكن للناس العاديين تحسين حياتهم من خلال أن يصبحوا كائنات سياسية وتجعل السلطة تستجيب لآمالهم واحتياجاتهم، أن ما هو علي المحك بالنسبة للسياسة الديمقراطية يكمن في ما إذا كان الأفراد العاديون يمكن أن يقروا أن اهتماماتهم يتم حمايتها ورعايتها على نحو أفضل في ظل نظام تكون أفعاله محكومة من قبل مبادئ المشاركة والمساواة والإنصاف، النظام الذي هو نظام يصبح فيه المشاركة في السياسة وسيلة للتعبير والتشارك في الحياة المشتركة وأشكالها لتحقيق الذات، تتعلق الديمقراطية بأن ندير

(176) Ibid, p 258

معا القوى التي تؤثر بشكل هام ومباشر على حياة وظروف الآخرين كما تؤثر علي حياتنا وظروفنا(١٧٧).

وفي حين أن هناك العديد من الدروس التي يمكن استخلاصها من كارثة الحرب، إلا أن هناك درسًا حاسمًا لأي مستقبل قد تكون عليه الديمقراطية، وخاصة الديمقراطية التشاركية، يتعلق الأمر بالأهمية الأساسية لإخبار الحقيقة والآثار المدمرة للكذب(١٧٨).

إذا كانت الديمقراطية تتعلق بالمشاركة في الحكم الذاتي، فإن مطلبها الأول هو ثقافة داعمة، ومزيج من المعتقدات والقيم والممارسات التي تعزز المساواة والتعاون والحرية. هناك حاجة نادرا ما نوقشت ولكن حاسمة لمجتمع يحكم نفسه هو أن الأعضاء وأولئك الذين ينتخبون لتولي المنصب يقولون الحقيقة على الرغم من أن الكذب قد برز في جميع أشكال الحكومة، إلا أنه يكتسب أهمية خاصة في الديمقراطية، حيث يكون موضوع الخداع هو "السيادة" في ظل أشكال غير ديمقراطية من الحكومة، حيث يتم استبعاد الشعب سياسياً كمسألة مبدأ، فإن الكذب عادة ما يقوم به صاحب السيادة أو وكلائه، عادة من أجل تضليل أولئك الذين يفترض أنهم أعداء أو منافسون لصاحب السيادة(١٧٩).

تكمن المشكلة اليوم في أن الكذب ليس ظاهرة معزولة بل سمة مميزة للثقافة التي تكون فيها المبالغة والمطالبات المتضخمة من الأمور الشائعة، لأكثر من قرن من الزمن تشكل الجمهور من خلال الثقافة المتصلبة للإعلان ومبالغاته، وادعاءاته الكاذبة، وأوهامه كلها تهدف إلى التأثير وتوجيه السلوك بالطرق المتعمدة التي اختارها المعلن، وقد تم تكييف التقنيات التي طورت في السوق من قبل المستشارين السياسيين وخبراء وسائل الإعلام الخاصة بهم، والنتيجة هي

(177) Ibid, p 260
(178) Ibid, p 260
(179) Ibid, p 260-261

(ISSN: 2536 - 9555)

تلويث البيئة السياسية من خلال السياسة غير الشرعية للحكومة المخادعة والتي تدعي أنها ليست كذلك وإنها تتسم بالرحمة والاعتدال والخوف من الله والالتزام الأخلاقي(١٨٠).

ربما كان المبرر الأكثر تأثيراً على الكذب السياسي كشكل أعلى من العقل، وللكذب كامتياز من نوع خاص للنخب السياسية التي تصل إلى حقيقة أعلى لا يصل إليها الناس الفانيين، تم وضعها بواسطة أفلاطون قبل أكثر من ألفي عام، إن تبريره للكذب له أصداء معاصرة في الكذب الممنهج الذي تبنته الشمولية المتحولة(١٨١).

في حين أن مبدأ المشاركة الشعبية في صنع القرار أمر أساسي للديمقراطية فإن المشاركة المدروسة تعتمد على مواطن مشتركة معينة: هي: **أولاً** توفر المعرفة في شكل معلومات واقعية موثوقة، **ثانياً**: الثقافة السياسية التي تقدر وتدعم الجهد الصادق للوصول إلى الأحكام التي تهدف إلى تعزيز أقصى قدر ممكن من المصالح الفضلى للمجتمع ككل **ثالثا**: النزاهة الفكرية وتكمن في مسؤولية أولئك الذين كمعلمين، دعاة، باحثين، وعلماء، يمارسون قول الحقيقة كرسالة لهم، إنها ليست مهمة يؤديها العديد من العلماء ومذيعي البرامج الحوارية وصحفيو المبيعات ومعاونيهم، إن كفاءة العمل المعتمدة على الإخبار بالحقيقة لا يمكن أن يتم ممارستها دون الاحترام العام والخاص من أجل الدفاع عن السلامة الفكرية(١٨٢).

في ضوء ذلك يرى وولين أن الديموقراطية الهاربة ليست ديموقراطية دستورية: لا تشكل الدساتير اليوم حدود الشرعية واللاشرعية فحسب، بل إنها تنظم مقدار السياسة، والإيقاعات الزمنية أو دورية السياسة، وتعطيها أشكالًا شعائرية، على وجه الخصوص تحدد الدساتير متى يمكن للتعبيرات التجريبية أن تعبر عن نفسها

(180) Ibid, p 262
(181) Ibid, p264
(182) Ibid, p 262

وكيف يمكنها التعبير عن نفسها من خلال توجيه صوتها من خلال حجرات التصويت وقاعات المداولات القضائية، كذلك فإن الدساتير تشرف أيضًا على الحياة الاقتصادية لأنها تضع الشروط المسبقة للاستغلال الاقتصادي وتخدم مصالح الدولة القومية والنخبة الاقتصادية، الدساتير المعاصرة حتى تلمس العالم الداخلي من خلال تشجيع استيعاب القواعد العالمية؛ أنها تزيد من الرداءة وتلغي أقصى درجات الرغبة الإنسانية، جنبا إلى جنب مع الرغبات الشريرة مثل الخداع والغباء لذلك تُذهب الرغبة في التميز، بين الدساتير والديمقراطية هناك أرضية مشتركة نادرة تقوم الدساتير بتدجين الديمقراطية وتحجيم السياسة مما يجعلها منظمة وموجهة على حد سواء، الدساتير والديمقراطية "مفهومان متعارضان تمامًا يرمزان إلى حالتين معارضتين متساويتين؛ فبدلاً من السعي إلى القمع الشامل أو الإبادة، تخرق الدساتير حديثة العهد الديمقراطية لأغراضها الخاصة هذا العداء يعني أن الديمقراطية الدستورية هي تسمية خاطئة؛ الديمقراطية الدستورية "ليست ديمقراطية بكل بساطة لأنها ديمقراطية بدون جماهير كعنصر فاعل، يغير المعدل الدستوري معنى الاسم بالكامل، الديمقراطية الدستورية لا تعني نوعًا من الديمقراطية، بل هي عبارة عن فكرة إدارية للديمقراطية تخلطها في أشكال طبيعية وتطبيعية(١٨٣).

وهنا يؤكد وولين أنه يجب أن تكون النظرية الديمقراطية قادرة على وصف مفهوم الديمقراطية التي تكشف ضحالة ادعاء القوى العظمى التي تحدد هويتها، ما هي أنواع الممارسات التي يمكن اعتبارها ديمقراطية، وهذا يشير إلى أمثلة فعلية، قبل كل شيء يجب أن تدرك أن الديمقراطية في العالم المعاصر ليست مهيمنة ولكنها محاصرة وتعارض بشكل دائم هياكلها، إن مبدأ السلطة في الديمقراطية وهمي: الأغلبية هي القطع الأثرية التي يصنعها المال والتنظيم ووسائل الإعلام(١٨٤).

(183)Jennet Kirkpatrick, Democracy on the lam: crisis, constitutionalism, and extra legality, University of Michigan, March, 2011, p6,7
(184) Sheldon S. Wolin, politics and vision،p 601

(ISSN: 2536 - 9555)

هنا يؤكد وولين أن هناك إمكانية في الحركات نحو الحكم الذاتي، والحركات نحو الاستقلال الاقتصادي، والحركات نحو الإصلاح التربوي، وما إلى ذلك، التي لديها بذور التغيير، لكن الأمر صعب للغاية الآن، بالنظر إلى الطريقة التي يتم بها التحكم في وسائل الإعلام وطريقة الأحزاب السياسية المنظمة والمسيطر عليها، من الصعب جدًا الحصول على موطئ قدم في السياسة بهذه الطريقة، إنها عملية معقدة للغاية وصعبة ومتطلبة(١٨٥).

في ضوء ذلك يرى وولين أن السياق السياسي الأصغر هو أكثر ملاءمة لرعاية القيم الديمقراطية، مثل المشاركة الشعبية والمناقشة العامة والمساءلة من خلال الفحص الدقيق لأصحاب المناصب، مقياس أصغر يجلب معه رهانات متواضعة، وما يترتب على ذلك من تقليص في القوة والتوقعات والطموحات(١٨٦).

تعمق المداولات الديمقراطية التجربة السياسية للمواطنين، لكنها تستغرق وقتًا طويلاً: فالوقت مطلوب للتعبير عن وجهات نظر متنوعة، والاستجواب الممتد، والنظر في الأحكام. فعندما تكون وتيرة الحياة أبطأ، يكون هناك "الكثير من الوقت" وإمكانية أكبر للنظر في الأحكام واتخاذ قرارات أكثر ديمومة وذاكرة عامة(١٨٧).

كانت الديمقراطية هي اللحظة السياسية التي أدرك فيها الديمقراطيون أن سلطة الدولة تعبر عن قوتهم وسلطتهم، وليست استيلاء غير قانوني على هذه السلطة الشعبية من قبل الأثرياء وأصحاب النفوذ(١٨٨).

إن المجتمع الذي يركز على المستقبل ويصيبه نوبة التغيير السريع يجد صعوبة في معرفة كيفية التفكير في عواقب الخسارة، لا سيما الأشياء التي تمت

(185) Sheldon S. Wolin, Can Capitalism and Democracy Coexist, p 7
(186) Sheldon S. Wolin, democracy incorporated, p, 267
(187) Ibid 267
(188) Sheldon S. Wolin, Democracy: Electoral and Athenian, American Political Science Association, Vol. 26, No. 3, Sep.1993, p476,477

مشاركتها على نطاق واسع، إن العديد من أشكال التغيير مدمرة حتمًا، تمحي طرق الحياة والمعتقدات الحالية أو تحل محلها، أن محو القديم أصبح هو المعيار؛ فالأفكار التي كانت عملة مشتركة فيما مضي مثل العدالة الاجتماعية والموضوعية والصالح المشترك أصبحت تبدو اليوم من مخلفات الماضي التي يتم التخلي عنها ونفس الشيء بالنسبة للالتزامات التي تنطوي عليها، إن التغيرات السريعة لا تؤدي إلى إضعاف الضمير الجماعي فحسب، بل تضعف أيضا الذاكرة الجماعية، عدم وجود ذاكرة جماعية يعني عدم الشعور بالذنب الجماعي(١٨٩).

والنتيجة المترتبة على ذلك هي: أن استعادة الديمقراطية تكون مهمة تتعارض مع الديناميكيات السياسية لعصرنا(١٩٠).

تشير قلة الديمقراطيات الفعلية تاريخياً إلى أن المؤسسات السياسية الديمقراطية لا تنشأ إلا بعد سلسلة من النضالات ضد النزعة "الطبيعية" للسلطة السياسية التي يحتكرها القليلون(١٩١).

لقد ظهرت سياسة الاحتجاج في أمريكا قبل الثورة، حيث تم إقصاء المستبعدين سياسياً بشكل دوري وانتقلوا إلى الشوارع أو اعتمدوا على منظمات مرتجلة للتنديد بالقرارات السياسية التي كانت مصالحهم وآرائهم غير ممثلة بها، لم يكن هناك جمهور مترابط أو عامة موحدة وإنما كانت مجرد أفعال عرضية(١٩٢).

كانت تلك اللحظات الهاربة عندما تصرفت العامة متحدية هيكل السلطة بل وأثرت عليها، كانت عادةً مبادرات متفرقة وليست جماعية(١٩٣).

---

(189) Sheldon s. Wolin، democracy incorporated, p 275
(190) Ibid, p 275
(191) Ibid, p 277
(192) Ibid, p 277,278
(193) Ibid, p278

(ISSN: 2536 - 9555)

إن الانقسامات العديدة والمصالح المتضاربة للمجتمع المعاصر تجعل من الصعب حشد أغلبية متماسكة[١٩٤].

وبالتالي فإن أفضل أمل لإحياء الديمقراطية هو الاستفادة من التجربة التي تمثلها العامة والديمقراطية الهاربة، وبالتالي تحديد المواقع الواعدة لإحياء الديمقراطية، ومن الأساسيات الأولية تمييز الشعب عن النخب التي تدير الديمقراطية[١٩٥].

يعتمد بقاء الديمقراطية وازدهارها في المقام الأول على تغيير "الناس" أنفسهم، وتخليصهم من السلبية السياسية، وبدلاً من ذلك اكتساب بعض سمات العامة، وهذا يعني أن يخلقوا أنفسهم ويأتون إلى الوجود بمقتضي الأفعال الخاصة بهم[١٩٦].

لكي تصبح ديمقراطيا يجب أن تغير نفسك لتتعلم كيف تتصرف بشكل جماعي بوصفك جزء من العامة، يتطلب الأمر أن يكون الفرد "عامًا"، وبالتالي يساعد في تشكيل سياسة "عامة" و"مفتوحة"، من حيث المبدأ يمكن للجميع المشاركة فيها حتى يتسنى للجميع رؤية أو تدارس المداولات والقرارات، مما يحدث في الوكالات والمؤسسات العامة[١٩٧].

تعود جذور العقلانية الشعبية إلى النزعة الإصلاحية حيث يتم التعامل معها على أنها حقيقة يومية و"روح مدنية" غير اعتذاريه[١٩٨].

إن العامة لن تكون مهيمنة سياسيا أبدا. في العصر الذي تكون فيه الهويات متعددة ومتغيرة لم تعد العامة الموحدة ممكنة أو حتى مرغوب فيها، وقد أصبحت المواطنة الديمقراطية بدلا من العامة، إن الوعي السياسي الديمقراطي في حين أنه

(194) Ibid, p 278
(195) Ibid, p287
(196) Ibid, p 289
(197) Ibid, p 289
(198) Ibid, p 289

قد يظهر في أي مكان وفي أي وقت، من المرجح أن يتم تنميته في ظروف محلية وصغيرة النطاق، حيث يبدو أن النتائج السلبية للعجز السياسي والإمكانيات الإيجابية المشاركة السياسية أكثر وضوحًا، علاوة على ذلك، يمكن للديمقراطية المحلية الحيوية أن تساعد في عبور المسافة الحتمية بين الحكومة التمثيلية ودوائرها الانتخابية، هناك مساهمة قيّمة يمكن للديمقراطية أن تقدمها في السياسة الوطنية، لكنها تعتمد على سياسة متجذرة محليًا، وتتمتع بالخبرة اليومية، وتمارس بشكل منتظم، وليس فقط تعبئتها بشكل متقطع، تبدأ التجربة الديمقراطية على المستوى المحلي، لكن لا ينبغي أن يقبل المواطنون الديمقراطيون حدود المدينة كأفق سياسي، السبب الرئيسي هو أن المواطنين المعاصرين لديهم احتياجات تتجاوز الموارد المحلية (على سبيل المثال، إنفاذ المعايير البيئية) ولا يمكن معالجتها إلا عن طريق سلطة الدولة[١٩٩].

وهنا يتفق شيلدون وولين مع موري بوكتشين الذي رأى أننا لا ينبغي أن نخلط بين الكونفدرالية القائمة علي السلطة الشعبية وبين الفيدرالية التي هي ببساطة استمرار للدول المركزية في شبكة من الاتفاقات التي تحافظ على صلاحيات صنع السياسة دون تدخل يذكر من جانب أي مواطن[٢٠٠].

وهنا يؤكد موري بوكتشين أنه لكي يكون لهذه المجتمعات الكونفدرالية وجود حقيقي يجب أن نحاول خلق ثقافة سياسية جديدة تشمل جهودًا حقيقية لتحقيق هذه الأهداف، مع إدراك كامل لكل الصعوبات التي تواجهنا والتي يجب أن نتخطاها بإرادة وإصرار حقيقي، ويجب أن تبدأ هذه الثقافة السياسية من الحي، "فالحي" ليس مجرد المكان الذي يبني فيه الناس بيوتهم، ويربون أطفالهم، ويبتاعون الكثير

---

(199) Ibid, p p 290-291

(200)Murray Bookchin, The Ecological Crisis And The Need To Remake Society,1992 In The Next Revolution:Popular Assemblies And The Promise Of Direct Democracy, Introduction By Debbie Bookchin And Blair Taylor, Verso Books,London , 2015,P.44,45.

(ISSN: 2536 - 9555)

من بضائعهم إنه يشمل المناطق الحيوية التي يتجمع فيها الناس لمناقشة القضايا السياسية والاجتماعية، وبالفعل فإن مدى مناقشة القضايا العامة بشكل علني في مدينة أو بلدة هي التي تحدد حقاً الحي بوصفه مساحة مهمة للسلطة السياسية(٢٠١).

يتضح من ذلك أن الديمقراطية ظاهرة سريعة الزوال وليست نظامًا مستقرًا؛ إنها تضم مجموعة واسعة من الأشياء الممكنة، الأشكال والطفرات التي تستجيب لمظالم أولئك الذين ليس لديهم أي وسيلة للإنصاف سوى المخاطرة بتجميع أجزاء سلطتهم الصغيرة بشكل جماعي: سياسة الديمقراطية هي خلق أولئك الذين يجب أن يعملوا، والذين لا يستطيعون توظيف وكلاء لتعزيز مصالحهم، والذين تعتبر المشاركة على عكس التصويت بالضرورة تضحية.

وبذلك يمكن النظر إلى الديمقراطية على إنها سياسة أولية حول احتياجات وتطلعات الكثيرين، وليس حول نظام حكم وحدوي،فالديمقراطية يجب أن تكون حول الأنماط وليس الدستور، وبدلاً كونها عملية مؤسسية يجب أن يُنظر إليها على أنها لحظة من الخبرة، استجابة متبلورة لمظالم أو احتياجات عميقة الشعور من جانب أولئك الذين يعانون في ظل الشمولية المتحولة(٢٠٢).

أننا جميعًا يجب أن نأخذ نفسًا عميقًا نحاول أن نبدأ من نقطة الصفر مرة أخرى في التفكير في مكاننا وكيف نحن للوصول إلى هناك، وما نوع الخطوات الفورية التي قد نتخذها لتغيير المسار(٢٠٣).

ويجب أن تكون البداية من التركيز على النطاق الصغير لأنه المقياس الوحيد الذي يتناسب مع نوع و مقدار القوة التي تستطيع الديمقراطية حشدها، قوة تكمن

(201)Murray Bookchin, A Politics For The Twenty – First Century,1998 In The Next Revolution:Popular Assemblies And The Promise Of Direct Democracy، Introduction By Debbie Bookchin And Blair Taylor, Verso Books, London, 2015, P.48,49.

(202) Sheldon S. Wolin, politics and vision, p 602
(203) Sheldon Wolin, Can Capitalism and Democracy Coexist? p12

في تعدد المواقع المتواضعة المنتشرة بين الحكومات المحلية والمؤسسات الخاضعة للسيطرة المحلية (المدارس، صحة المجتمع الخدمات، والشرطة والحماية من الحرائق، والترفيه، والمؤسسات الثقافية، والممتلكات الضرائب) وفي براعة الناس العاديين في ابتكار أشكال مؤقتة، إن التعددية هي سياسة مناهضة للكلية: السياسات الصغيرة، المشاريع الصغيرة، الأعمال الصغيرة، والكثير من الارتجال، وبالتالي تكون لعنة على المركزية سواء كانت دولة مركزية أو شركة ضخمة، تعدد يتوافق مع الطبيعة التاريخية للمواطنة الديموقراطية[٢٠٤].

تحدث وولين عن الديموقراطية الهاربة بوصفها العلاج الذي سيخفف من حدة الشمولية المتحولة وهي الديموقراطية التي لا تعتمد كما قلنا على المؤسسات الرسمية أو الدوائر الحكومية؛ إنها تكمن في النضالات التي يقوم بها الناس العاديين في كل مكان ضد أشكال الظلم والمعاناة التي أنتجتها الشمولية المتحولة، إنها ليس لها مركز ثابت ولا مكان محدد بعينة إنها تنتقل من مكان لمكان تظهر وتختفي بحسب الموقف الذي يتم استدعائها من أجله، إنها تكمن في المساعدات الإنسانية التي يقدمها الأشخاص العاديون للتقليل من حدة المعاناة، وإن كنت أتفق معه في الدور الذي تقوم به هذه النضالات وتلك المساعدات في التخفيف من حدة هذه المظالم والشرور التي تسببت فيها الشمولية المتحولة إلا إنني لا أتفق معه في وصف الديموقراطية بأنها تكون هاربة وسريعة الزوال؛ لأن ذلك سيقلل من فاعليتها، وسوف تتمكن الشمولية المتحولة في نهاية الأمر من محاصرتها والقضاء عليها بما تمتلكه من قدرات وتقنيات هائلة سوف تعينها على التعتيم على هذه الجهود الذاتية المتفرقة وإسكات صوتها وصرف انتباه المواطنين عنها، وسوف ينتهي الأمر بإبعادها عن المشهد السياسي تماما.

إن الديموقراطية كما يصفها وولين سوف تتحول إلى حركات عشوائية مشتتة يتم القضاء عليها بسهولة من قبل الشمولية المتحولة؛ فالديموقراطية لكي يكون لها وجود حي ملموس يجب أن يكون لها دور حقيقي فعال على أرض الواقع، يجب

(204) Sheldon S. Wolin، politics and vision, p p 602,603

(ISSN: 2536 - 9555)

أن تكون ديموقراطية مواجهة وليست هاربة، يجب أن يكون وجودها مستمر ودائم وليس وجود مؤقت ومتفرق، يجب أن يكون لها آلياتها واستراتيجياتها ومخططاتها لكي تتمكن من التصدي للشمولية المتحولة التي لها مخططاتها واستراتيجياتها، يجب أن تكون جهودها واعية ومقصودة ويكون لها غايات وأهداف معينة تسعى إلى تحقيقها على أرض الواقع، يجب أن تتخلص من الطابع العشوائي الذي سيجعل جهودها تذهب هباءً وأن تكون منظمة ومحددة المعالم ولها طرق تنفيذ واقعية يمكن أن نلمس آثارها على أرض الواقع، وإنني أتفق معه في أن هذه الديموقراطية المنشودة سوف تأخذ وقتا طويلا وسوف تحتاج إلى بذل المزيد من الجهود المتضافرة والمتعاونة حتى يكون بمقدورها أن ترسخ دعائمها وتحقق ما تصبوا إليه، ولكي يحدث ذلك ولكي يكون لها وجود حي ملموس يجب أن تستخدم نفس السلاح الذي تستخدمه الشمولية المتحولة والمتمثل في التقنيات العلمية والتكنولوجية الهائلة؛ لأنه السلاح الوحيد الذي سيثبت فاعليته في عصرنا الراهن ولكن طريقة استخدام هذا السلاح سوف تختلف عن الطريقة التي تستخدمه بها الشمولية المتحولة؛ إنها تستخدمه في الهدم والتخريب باسم البناء والتعمير من خلال التعويل على الأكاذيب وتغييب الحقائق وتزييف الآراء مستخدمة كل الحيل والأساليب المخادعة التي تعينها على تحقيق مهمتها، أما استخدام الحركات الديموقراطية لهذا السلاح المتمثل في الإمكانات والقدرات التقنية الهائلة سوف يكمن في كشف النقاب عن الوجه الحقيقي للشمولية المتحولة من خلال كشف كل مخططاتها واستراتيجياتها، وكيف أنها تقوم في الأساس على الكذب والخداع والتزييف، وسوف يتحقق ذلك من خلال توعية الناس وتثقيفهم من خلال كشف الحقائق وتقديم الأدلة والبراهين التي تثبت بما لا يدع مجال للشك أن القوى العظمى لم ولن تتحرك أبدا باسم الدوافع الإنسانية، وأن هدفها كان وسيظل هو فرض الهيمنة والتحكم العالمي حتى لو أدى ذلك إلى تدمير الإنسانية وسحقها من الوجود.

إن عودة الوعي الحقيقي إلى مساره الصحيح هي الخطوة الأولى والأساسية والأكثر أهمية لمواجهة الشمولية المتحولة؛ لأن غياب الوعي وتشويهه وتزييف معالمه هو المسئول الأول عن كل المشكلات والأزمات التي يعاني منها البشر وعلى رأسها وجود الشمولية المتحولة وهو الدور الذي حاول أن يقوم به شيلدون وولين كما ظهر في هذا البحث.

خاتمة

تحدثنا في هذا البحث عن مفهوم الشمولية المتحولة عند شيلدون وولين ورأينا أن المقصود بالشمولية المتحولة: وجود القوى العظمى التي تمتلك قدرات وإمكانيات هائلة تجعلها قادرة على فرض هيمنة عالمية تتحكم من خلالها في مصير ومقدَرات الشعوب، وتتخفى تحت ستار من الشعارات الزائفة والمخادعة فنجدها تقهر وتستبد وتظلم باسم الديموقراطية وحقوق الإنسان وهي في حقيقة الأمر تقضي على كل مظاهر الديموقراطية، وتكون مثابة الهادم الأكبر لكل حقوق الإنسان.

وقد رمز شيلدون وولين للقوى العظمى بالهيمنة الأمريكية ورمز إليها أيضا بالهيمنة الرأسمالية المتمثلة في عولمة الشركات الكبرى وفرض نفوذها على الاقتصاد والسياسة العالمية، ونظر إلى الهيمنة العالمية وهيمنة اقتصاد الشركات الكبرى على أنهما وجهين لعملة واحدة فكل منهما جزء لا يتجزأ من الآخر.

ومن هنا حاول وولين أن يكشف لنا عن الوجه الحقيقي لهذه القوى العظمى التي تعبر عن الشمولية المتحولة، وحاول أن يقدم لنا أهم الأليات والاستراتيجيات التي تعول عليها لتحقيق أهدافها ومراميها، ثم حاول أن يقدم لنا العلاج الذي في رأيه لن يشفي تماما من الداء؛ لأنه مفكر واقعي لا يريد أن يحلق في سماء اليوتوبيات ويقول أنه يمكن لهذا العلاج أن يؤدي إلى القضاء تماما على الشمولية المتحولة المتمثلة في القوى العظمى؛ لأن الأسس التي تقوم عليها والأليات التي

(ISSN: 2536 - 9555)

تعول عليها والتي على رأسها التقنيات العلمية والتكنولوجية الهائلة تجعل من الصعب محوها من الوجود، وبالتالي فإن العلاج الذي يقدمه وولين يحاول فقط أن يخفف من حدة هذه الشمولية المتحولة.

قدم لنا وولين مجموعة من الفروق الدقيقة بين الشمولية التقليدية والشمولية المتحولة، وقد ركز فيها على الطابع اللاشخصي للشمولية المتحولة حيث أنها لا تعتمد على وجود قائد بعينه وذلك عل عكس الشمولية التقليدية التي كان وجودها معتمد كلية على قائدها، كذلك فإن الشمولية المتحولة تعتمد في الأساس على القوة الهائلة المصاحبة لها التي ترجع في الأساس إلى القدرات العلمية والتقنية الهائلة والتي عززت من وجودها وبقائها بدرجة أكبر من الشمولية التقليدية التي كانت قدراتها وإمكانياتها محدودة إلى حد ما، وإن كنت أتفق معه في أن الشمولية المتحولة تكون مدعومة من قبل قوى وقدرات وإمكانيات هائلة لم يسبق لها مثيل فإن ذلك في رأيي لم يغير من جوهر الشمولية والهدف الذي تسعى إلية والذي لم يتغير إنه نفس الهدف الذي سعت إلية الشموليات التقليدية والذي تسعى إليه الشمولية المتحولة حاليا وهو: فرض الهيمنة والسيطرة بكل الطرق والوسائل الممكنة والمتاحة، ومعنى ذلك أن جوهر الشمولية لم يتغير وإن كل ما تغير هو شكلها فقط؛ لقد تغيرت الآليات والاستراتيجيات المصاحبة لها نتيجة التطورات العلمية والتقنية الهائلة، ولو أن الشمولية التقليدية قد توفرت لها هذه القدرات وتلك الإمكانيات لسارت في نفس المسار الذي تسير فيه الشمولية المتحولة، وفيما يتعلق بتأكيده على أنها لا تعتمد على قائد بعينه فهنا أتساءل معه من الذي يحرك هذه القوى العظمى؟ هل تتحرك من تلقاء ذاتها؟ من الذي يستغل هذه القدرات التقنية الهائلة لصالح الشمولية المتحولة هل هذه التقنيات تعمل من تلقاء ذاتها ام أن هناك من يحركها ويوجهها لتحقيق الهدف المنشود وهو فرض الهيمنة العالمية؟ إن كل ما حدث في رأيي هو أن الشمولية التقليدية كان يحكمها قائد محدد بعينه

وإن كان له أيضا مجموعة من الأعوان؛ لأنه لا يمكن أن يقوم بهذه المهمة بمفرده إلا إنهم مجرد أداة تنفيذية لكل مخططاته وتوجهاته، أما في ظل الشمولية المتحولة فإنها لا تعتمد على قائد محدد بعينه وإنما تعتمد في الأساس على مجموعة من القادة يتقاسمون هذه المهمة فيما بينهم؛إنهم مجموعة من القادة السياسيين والاقتصاديين يحركون العالم بأصابيعهم ويكون كل منهم جزء لا يتجزأ من هذا التوجه الشمولي ويقوم كل منهم بدور يكون مكملا لأدوار القادة الأخرين الذين يسيرون معه على نفس الخط ويتبنون نفس الهدف ولكن يكون لكل منهم استراتيجياته وآلياته التي قد تتفق أو تختلف مع القادة الأخرين.

يتضح من ذلك أن مضمون الشمولية لن يتغير قديما وحديثا وإن كل ما تغير هو الأشكال المصاحبة لها والتي تغيرت نتيجة تطور وتغير المستجدات السياسية والاقتصادية والعلمية والتقنية، وإن كنت أتفق معه على أن الشمولية المتحولة تحاول أن تخفي أهدافها ومراميها وأنها تتخفى تحت ستار من الشعارات الزائفة والتي على رأسها تدعيم الديموقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان، فإن ذلك في رأيي يكون نتيجة للطابع العالمي الذي يكون ملازما للقوى العظمى والذي جعل هدفها أعم وأشمل وهو فرض الهيمنة على العالم بأسره لذلك يجب أن تستميل شعوب العالم باسم الإنسانية والديموقراطية، أما الشموليات التقليدية فكانت محدودة النطاق تقتصر على مناطق بعينها وبسبب إمكانياتها وقدراتها المحدودة لا يكن باستطاعتها النفاذ إلى كل مناطق العالم ولكنها أيضا تحاول أن تستميل شعوبها باسم الوطنية والصالح العام فليس هناك في رأيي قائد شمولي على مر العصور قد أعلن لشعبه أنه جاء ليقهرهم ويستبد بهم وإنما كان يعلن لهم أنه جاء من أجلهم ومن أجل الدفاع عن مصالحهم والدفاع عنهم من أي خطر قد يحل بهم، ومعنى ذلك أن هذه الشعارات الزائفة المصاحبة للشمولية المتحولة كانت موجودة أيضا في الشموليات التقليدية ولكن كل ما تغير هو شكلها وأساليب التعبير عنها نتيجة

(ISSN: 2536 - 9555)

تغير المستجدات والانفتاح العالمي الذي يقف وراءه تقنيات تكنولوجية هائلة طورت من أساليب التعبير عن هذه الشعارات جعلتها أكثر فاعلية من أي وقت مضى.

كذلك فإن الحديث عن إرهاصات الشمولية المتحولة يعني أنها لم تأتي من فراغ، ولم تكن وليدة اليوم؛ وإنما كان مخطط لها منذ فترة من الزمن، وتم تنفيذ هذا المخطط على مراحل وليس دفعة واحدة، وهذا يؤكد أن جوهر الشمولية واحد ولم يتغير، وإن كل ما تغير هو أساليب التعبير عنها، ومعنى ذلك أنها شمولية متطورة وليست متحولة؛تغير شكلها وإطارها الخارجي ولم يتغير مضمونها عن الشموليات السابقة عليها، وإن الحديث عن التغييرات المصاحبة لها والتي أدت إلى وجودها لا تعني تغيير في جوهرها فإن الحديث عن أوهام التغيير المصاحبة للألفية الجديدة لا يعني إحداث تغييرات فعلية حقيقية، ولا يعني ميلاد نظام جديد يحل محل الأنظمة القديمة؛ فالنظام القديم ظل كما هو وكل ما تغير هو الأشكال الخارجية المعبرة عنه نتيجة التطورات السياسية والاقتصادية والتقنية الهائلة، ومعنى ذلك أن أسس الشمولية ظلت كما هي وأن كل ما تغير هو تكتيكاتها وأساليبها، إنه المحافظة على جوهرها القديم ولكن في قوالب جديدة مبتكره تتلاءم مع المستجدات العالمية الحالية، والدليل على ذلك الحديث عن توسيع نطاق السلطة على المستوى الداخلي كخطوة أولى في إرهاصات الشمولية المتحولة، ومعنى ذلك أن فرض التحكم والهيمنة الداخلية يكون الأساس الأول لكل الشموليات قديما وحديثا إن كل ما حدث هو الانتقال من الهيمنة الداخلية إلى الهيمنة العالمية وذلك كان يحدث أيضا في الشموليات التقليدية ولكن هذا الانتقال في ظل الشمولية المتحولة يكون باسم دوافع إنسانية؛ فإنها كما قلنا تحاول أن تخفي أهدافها الحقيقية تحت ستار من الشعارات الزائفة ولكن جوهرها الحقيقي يكمن في فرض هيمنة وتحكم عالمي، ومعنى ذلك أن المخططات والإجراءات

الأساسية لكل الشموليات تكون واحدة، وإن كل ما يتغير هو الأساليب المصاحبة لها،معنى ذلك أن أصول اللعبة لم تتغير سواء في الشموليات التقليدية أو في الشمولية المتحولة وإن كل ما تغير هو طريقة اللعب والأساليب المتبعة فيه.

وفيما يتعلق بحديثه عن الكثير من المفكرين بوصفهم إرهاصات الشمولية المتحولة فإن هذا يؤكد أن الفكر المصاحب للشمولية لم يتغير قديما وحديثا، وإن كان هناك بعض المفكرين المدعمين للشمولية فإن الكثير منهم لم يكن هدفه في الأساس التحكم والهيمنة؛ وإنما كان هدفهم التخلص من الفوضى والاضطرابات السياسية التي كانت موجودة في واقعهم السياسي كما هو الحال بالنسبة لمكيافيللي وهوبز وأن كل ما حدث هو أن قادة الشمولية في كل زمان ومكان قد استغلوا أفكارهم لخدمة مخططاتهم وأجنداتهم السياسية.

وقد ربط وولين بين الشمولية المتحولة وصناعة الأسطورة، إنني أتفق معه في ذلك كان يقال فيما مضى أن الأسطورة هي قصة خيالية لتبرير أمور واقعية وهذا ما يحدث في أيامنا هذه ولكن الأمر قد تطور نتيجة لتطور المستجدات وتطور الظروف؛ فأصبح الواقع هو ما يتم تغليفه بسياج أسطوري، والغريب كان يقال أيضا فيما مضى أن التفكير الأسطوري هو تفكير بدائي يحمل إلى حد كبير أمور خرافية أي أنه بعيد كل البعد عن الجانب العلمي، ولكن في عصرنا الراهن أصبحت الأساطير ترتبط ارتباطا وثيقا بالعلم والتقنيات الحديثة، فأصبح التطور العلمي يكشف لنا كل يوم عن عجائب وأسرار تفوق الخيال، حاولت تجذب العقول وتشد انتباه الناس، وأصبح الناس منشغلين بهذه العجائب العلمية التكنولوجية الفائقة، وقد استغل أصحاب الشمولية أو المروجون للشمولية ذلك استغلالا كبيرا بحيث أصبحوا يلفتوا انتباه الناس أكثر وأكثر لهذه العجائب التكنولوجية ويدفعوهم دفعا بكل الوسائل الممكنة لتجريب هذه العجائب التكنولوجية والبحث عنها والاستمتاع بها، وقد أدى بهم ذلك إلى تحقيق أهدافهم ومراميهم والتي على رأسها

(ISSN: 2536 - 9555)

أن يصرفوا انتباه الناس عن مشكلاتهم، عن أزماتهم، عن حياتهم، عن واقعهم، عن الشئون السياسية، أصبح المواطن بعيد كل البعد عن الواقع السياسي، أصبح متفرجا مشدوها منبهرا بالعجائب العلمية التكنولوجية المغلفة بثوب أسطوري يسحر العقول ويغيب وعي الناس، وصدق الله إذ قال (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) (الأعراف،١١٦)، ولكن هذا السحر في هذه المرة لم يكن بعيدا عن العلم والتقنية كما كان فيما مضى ولكن سحر العلم وسحر التقنية وسحر العجائب التكنولوجية التي تتطور و تتقدم كل يوم عن اليوم السابق له، ومن هنا أصبح حتى أنصار الشمولية المتحولة يغلفون قوتهم بثوب أسطوري: القوة الفائقة القوة التي لا تحدها حدود، القوة التي تبهر ولم يسبق لها مثيل، القوة التي تفوق الخيال وتتعدى الحدود، القوة التي لا يقف أمامها موانع ولا يحول بينها وبين تحقيق أهدافها ومراميها سدود ولا حواجز وكل ذلك يتم تغليفه بثوب أسطوري يخفي الحقائق ويشوه الوقائع، حتى تصل الى المرحلة التي لا تعرف فيها الصدق من الكذب والواقع من الخيال والحقيقة من الوهم، وهذا ما يرغب أن يصل إليه الناس لدى أصحاب الشمولية المتحولة؛ فعندما يلتبس الحق بالباطل والحقيقة بالوهم والواقع بالخيال يتوه كل شيء، تتوه الحقائق، وتتوه الوقائع، ويتوه الإنسان نفسه في خضم هذا العالم الذي يتطور ويتغير ويتجدد على الدوام والذي يشده العقول ويشد الأعين ويسحر الأفئدة.

ثم تطرق هذا البحث إلى الحديث عن آليات الشمولية المتحولة و تكون بمثابة الأسس التي تقوم عليها الشمولية؛ إنها الركائز التي تدعم وجودها وتضمن بقاءها، إنها الأداة الفعالة التي تجعل للشمولية المتحولة أساس راسخ وذلك يرجع في الأساس في رأيي إلى أن هذه الآليات هي آليات تسعى إلى الهدم ولكن باسم البناء، تسعى إلى التخريب ولكن باسم التعمير،تقلب الحقائق، وتغيب القيم فيتوه معها كل شيء؛ إنها لا تقوم على الوقائع وإنما تقوم على الخداع والتزييف والإيهام

والتلاعب، ولذلك نجد أن من أبرز هذه الآليات أنها ديناميكية متحركة ليس لها مركز ثابت ومعنى أنها ديناميكية ومتحركة يؤكد أنه من الصعب الإمساك بها؛ لأنها ليس لها مركز ثابت تتحرك منه وإنما تتحرك في ظل نقاط لا تعد ولا تحصى، ولا يكون مسئول عنها قائد بعينه وإنما يكون مسئول عنها مجموعة من الأفراد الكثيرين والمنتشرين في كل مكان، فالشمولية المتحولة بسبب ديناميكيتها يصعب التحكم فيها، ويصعب البحث عن مسئول يمكن محاسبته وتحميله مسؤولية وجود هذه الشمولية المتحولة.

إن تعدد النقاط وتشعبها ووجودها في مراكز قوة لا حصر لها يجعلها أكثر انتشارا وأكثر رسوخا وأكثر تدعيما وأكثر ثباتا، إن ديناميكيتها المتحركة تؤدي إلى ثباتها ورسوخها ودوامها، إن الديناميكية هي آلية أساسية من آليات الشمولية المتحولة والتي تجعل لها وجود يصعب زعزعته والمساس به.

كذلك من آليات الشمولية المتحولة إنها تجمع بين المتناقضات تظهر شيء كما قلنا وتخفي شيء؛ تعلن أنها جاءت من أجل الإنسانية ومن أجل الكرامة ومن أجل الحقوق في حين إنها تقضي على كرامة الإنسان وتكون أكبر هادم للحقوق وأكبر مدمر للإنسانية، ولكن الترويج لهذه الشعارات الزائفة في كل وقت وفي كل لحظة عبر وسائل الإعلام واستخدام التقنيات الهائلة يجعلها تتحول إلى حقيقة يصدقها الناس ويؤمنون بها بل ويدافعون عنها في بعض الأحيان، إن استمرار الترويج للشيء صباحا ومساءا في كل ليلة ونهار يجعله يمكن أن يتحول إلى حقيقة حية ملموسة يؤمن بها الناس ويصدقوها ويحلمون بها ويدافعون عنها؛ ففي ظل الجمع بين المتناقضات تتوه الحقائق وتنهار القيم وتضيع معالم كل شيء.

وكذلك من آليات الشمولية المتحولة الجمع بين الدين والسياسة؛ لقد وجد السياسيون أنهم بحاجة إلى تدعيم أكبر يقنع الناس، وأن الطابع الديني أو الوازع

(ISSN: 2536 - 9555)

الديني له تأثير على الناس حتى في الشعوب المتقدمة؛ فإن وجود الدين والإيمان له أهمية كبيرة، وصدق ماركس إذ قال إن الدين افيون الشعوب وهذا هو ما تفعله القوى العظمى التي تعلن أنها مؤيدة من الله وأنها تسير ببركة الله وأنها جاءت لنصرة ما جاء في الكتب المقدسة الدفاع عن الإنسانية وحماية البشر، فادعت أنها تمثل قوى الخير وإن كل ما يقف أمامها يمثل قوى الشر والشيطان، وهذا يذكرنا بأوغسطين الذي ذهب إلى أن كل من يسير في طريق المسيحية هو في طريق الله وكل من لا يسير في طريق المسيحية هو في طريق الشيطان، فجاءت القوى العظمى لتقول أن كل من يسير في طريق أمريكا أو في طريق القوى العظمى فهو في طريق الله، وأن أي قوى تحاول أن تقف أمامها وتحاول أن ترفض تعاليمها وتحاول أن تقف لها بالمرصاد فهي تمثل قوى الشر والشيطان ويجب أن يتم القضاء عليها.

إن هذا الاندماج بين الدين والسياسة في رأيي لم يكن جديدا أبدا؛ إنه وسيلة الغرب على مر العصور، وإذا تذكرنا العصور الوسطى والحروب الصليبية وكيف أنها كانت تدعي أنها تسير ببركة الله ومعونة الله وتأييد الله، إن الفصل بين السياسة والدين المزعوم هو أكذوبة غربية آمنا بها وصدقناها ودافعنا عنها وليس لها وجود على أرض الواقع، دائما يتم التلاعب باسم الدين تستغل السياسة الدين لتحقيق مصالحها ومآربها باسم التأييد الإلهي والدفاع عن قوى الخير ضد قوى الشر والظلام.

ومن هذه الآليات أيضا أن هذه القوى العظمى أصبحت مسؤولة عن انتاج العلم والمعرفة، وأصبحت المتحكم في وجود التقنيات العلمية والتكنولوجية الهائلة التي تستغلها لتحقيق مصالحها وأهدافها، والغريب في الأمر أنها أصبحت تستميل الكثير من المفكرين والعلماء والباحثين الذين أصبحوا أوباقا لها جزء لا يتجزأ من

أجنداتها ومخططاتها السياسية فعندما يصبح العلماء والمفكرون والباحثون أداة في يد أصحاب الشمولية يحركونهم بأصابعهم كما يشاءون من الطبيعي أن تتوه الحقائق ويتغير معالم كل شيء، إن هؤلاء المفكرين والعلماء من الطبيعي أن يكونوا هم أداة للإصلاح وأداة للبناء وأداة للتعمير وليس وسيلة يستغلها المروجون للشمولية لتكون معول للهدم والخراب والتدمير.

يتضح من ذلك إن آليات الشمولية المتحولة هي مجموعة من الاستراتيجيات المحكمة التي تتداخل فيما بينها والتي يكمل كل منها الآخر، ويكون كل جزء منها لا يتجزأ من الآخر؛ إنها التطور والتقدم الهائل في كل الإمكانيات والقدرات الذي جعل لوجود هذه الاستراتيجيات وتلك الآليات وجود حقيقي حي ملموس على أرض الواقع، وجعلها أكثر فاعلية وهدما وفتكا من كل العصور السابقة التي لم تتوفر لها هذه الإمكانيات وتلك القدرات، ذلك فإن الفرق بين الشمولية المتحولة والشموليات التقليدية ليس في جوهرها لأن كما قلنا جوهرها واحد وهو فرض الهيمنة والتحكم ولكن في الاستراتيجيات والآليات المعبرة عنها في الأشكال والأساليب المصاحبة لها والتي أدت إلى ترسيخها ووجودها بشكل يصعب كشفه أو القضاء عليه.

تحدث وولين عن الديموقراطية الهاربة بوصفها العلاج الذي سيخفف من حدة الشمولية المتحولة وهي الديموقراطية التي لا تعتمد كما قلنا على المؤسسات الرسمية أو الدوائر الحكومية؛ إنها تكمن في النضالات التي يقوم بها الناس العاديين في كل مكان ضد أشكال الظلم والمعاناة التي أنتجتها الشمولية المتحولة، إنها ليس لها مركز ثابت ولا مكان محدد بعينة إنها تنتقل من مكان لمكان تظهر وتختفي بحسب الموقف الذي يتم استدعائها من أجله، إنها تكمن في المساعدات الإنسانية التي يقدمها الأشخاص العاديون للتقليل من حدة المعاناة، وإن كنت أتفق

(ISSN: 2536 - 9555)

معه في الدور الذي تقوم به هذه النضالات وتلك المساعدات في التخفيف من حدة هذه المظالم والشرور التي تسببت فيها الشمولية المتحولة إلا إنني لا أتفق معه في وصف الديموقراطية بأنها تكون هاربة وسريعة الزوال؛ لأن ذلك سيقلل من فاعليتها، وسوف تتمكن الشمولية المتحولة في نهاية الأمر من محاصرتها والقضاء عليها بما تمتلكه من قدرات وتقنيات هائلة سوف تعينها على التعتيم على هذه الجهود الذاتية المتفرقة وإسكات صوتها وصرف انتباه المواطنين عنها، وسوف ينتهي الأمر بإبعادها عن المشهد السياسي تماما.

إن الديموقراطية كما يصفها وولين سوف تتحول إلى حركات عشوائية مشتتة يتم القضاء عليها بسهولة من قبل الشمولية المتحولة؛ فالديموقراطية لكي يكون لها وجود حي ملموس يجب أن يكون لها دور حقيقي فعال على أرض الواقع، يجب أن تكون ديموقراطية مواجهة وليست هاربة، يجب أن يكون وجودها مستمر ودائم وليس وجود مؤقت ومتفرق، يجب أن يكون لها آلياتها واستراتيجياتها ومخططاتها لكي تتمكن من التصدي للشمولية المتحولة التي لها مخططاتها واستراتيجياتها، يجب أن تكون جهودها واعية ومقصودة ويكون لها غايات وأهداف معينة تسعى إلى تحقيقها على أرض الواقع، يجب أن تتخلص من الطابع العشوائي الذي سيجعل جهودها تذهب هباءً وأن تكون منظمة ومحددة المعالم ولها طرق تنفيذ واقعية يمكن أن نلمس آثارها على أرض الواقع، وإنني أتفق معه في أن هذه الديموقراطية المنشودة سوف تأخذ وقتا طويلا وسوف تحتاج إلى بذل المزيد من الجهود المتضافرة والمتعاونة حتى يكون بمقدورها أن ترسخ دعائمها وتحقق ما تصبوا إليه، ولكي يحدث ذلك ولكي يكون لها وجود حي ملموس يجب أن تستخدم نفس السلاح الذي تستخدمه الشمولية المتحولة والمتمثل في التقنيات العلمية والتكنولوجية الهائلة؛ لأنه السلاح الوحيد الذي سيثبت فاعليته في عصرنا الراهن

ولكن طريقة استخدام هذا السلاح سوف تختلف عن الطريقة التي تستخدمه بها الشمولية المتحولة؛ إنها تستخدمه في الهدم والتخريب باسم البناء والتعمير من خلال التعويل على الأكاذيب وتغييب الحقائق وتزييف الآراء مستخدمة كل الحيل والأساليب المخادعة التي تعينها على تحقيق مهمتها، أما استخدام الحركات الديموقراطية لهذا السلاح المتمثل في الإمكانات والقدرات التقنية الهائلة سوف يكمن في كشف النقاب عن الوجه الحقيقي للشمولية المتحولة من خلال كشف كل مخططاتها واستراتيجياتها، وكيف أنها تقوم في الأساس على الكذب والخداع والتزييف، وسوف يتحقق ذلك من خلال توعية الناس وتثقيفهم من خلال كشف الحقائق وتقديم الأدلة والبراهين التي تثبت بما لا يدع مجال للشك أن القوى العظمى لم ولن تتحرك أبدا باسم الدوافع الإنسانية، وأن هدفها كان وسيظل هو فرض الهيمنة والتحكم العالمي حتى لو أدى ذلك إلى تدمير الإنسانية وسحقها من الوجود.

إن عودة الوعي الحقيقي إلى مساره الصحيح هي الخطوة الأولى والأساسية والأكثر أهمية لمواجهة الشمولية المتحولة؛ لأن غياب الوعي وتشويهه وتزييف معالمه هو المسئول الأول عن كل المشكلات والأزمات التي يعاني منها البشر وعلى رأسها وجود الشمولية المتحولة وهو الدور الذي حاول أن يقوم به شيلدون وولين كما ظهر في هذا البحث.

(ISSN: 2536 - 9555)

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- قائمة المصادر:

1- Sheldon s. Wolin, Political Theory as a vocation, University of California, Berkeleym,1969.

2- ……., The Politics of the Study of Revolution، Comparative Politics, April 1973.

3- ……, Democracy and the Welfare State, Sage Publications, Inc, Vol. 15, No. 4,Nov,1987

4- ……..، Democracy in the Discourse of Postmodernism, The Johns Hopkins University Press, Vol. 57, No. 1, spring 1990.

5- ……, Democracy, Difference, and Re-Cognition, Sage Publications, Inc, Vol. 21, No. 3, Aug., 1993.

6- ……..., Democracy: Electoral and Athenian, American Political Science Association, Vol. 26, No. 3, Sep.1993.

7- ……., Contract and Birthright, Sage Publications, Inc, Vol. 14, No. 2, May, 1998.

8- …….. , Tocqueville between two worlds: The Making of a Political and Theoretical Life, princeton university press, princeton and oxford , 2001.

9- ……, politics and vision: Continuity and Innovation in Western Political Thought, princeton university press princeton and oxford, 2004.

10- ……., democracy incorporated managed: democracy and the specter of inverted totalitarianism, Princeton university press, Princeton and oxford, 2008.

11- ……..., Can Capitalism and Democracy Coexist?, http://therealnews.com/t2/index.php?option=com_content&task=view&id=832&Itemid=74&jumival=1250

ثانياً- قائمة المراجع:

١) المرجع الأجنبية:-

1- Hannah Arendt, Authority in the Twentieth Century, The Review of Politics, Vol. 18, No. 4, 1956.

2- Jennet Kirkpatrick, Democracy on the lam: crisis, constitutionalism, and extra legality, University of Michigan, March, 2011.

3- Jordan Otten, corporate governance and the politics of agency theory.

4- Murray Bookchin, A Politics For The Twenty – First Century, Verso Books, London, 2015.

5- ……, The Ecological Crisis And The Need To Remake Society, Verso Books,London, 2015.

٢) المراجع المترجمة إلى العربية

١- إدغار موران، هل نسير الى الهاوية؟، ترجمة: عبد الرحيم حزل، الدار البيضاء (المغرب)، افريقيا الشرق، ٢٠١٢.

٢- آلان تورين، براديغما جديدة لفهم عالم اليوم، ترجمة: جورج سليمان، مراجعة: سميرة ريشا، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١١.

٣- أمارتيا صن، فكرة العدالة، ترجمة: مازن جندلى، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٠.

٤- إريك فروم، المجتمع السوى، ترجمة: محمود محمود، ٢٠٠٩.

٥- برتراند راسل، السلطة والفرد، ترجمة: شاهر الحمود، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٦١.

(ISSN: 2536 - 9555)

٦-جوزيف أ. شومبيتر، الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١١.

٧-جون ميرشامير، مأساة القوى العظمى، ترجمة: مصطفى محمد قاسم، الرياض، جامعة الملك سعود، ٢٠١٢.

٨-فرانز فانون، معذبوا الأرض، (مقدمة بقلم جان بول سارتر)، ترجمة: سامى الدروبى وجمال أتاسى، دمشق، دار القلم، ١٩٨٥.

٩-موريس ديفرجيه، الأحزاب السياسية، ترجمة: علي مقلد، عبد المحسن سعد، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١١

١٠-ميشيل فوكو، إرادة المعرفة في: تاريخ الجنسانية، ج١، ترجمة: مطاع صفدي وجورج صالح، بيروت، مركز الإنماء القومي، ١٩٩٠.

١١-نعوم تشومسكي، الدول المارقة (استخدام القوة في الشؤون العالمية)، ترجمة: أسامة إسبر، الرياض، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٤.

١٢-.....، النظام العالمي القديم والجديد، ترجمة: عاطف معتمد عبد الحميد، القاهرة، نهضة مصر، ٢٠٠٧.

١٣-نيكوس بولانتزاس، السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية، ترجمة: عادل غنيم، بيروت، دار ابن خلدون، ١٩٨٣.